

كتب إسلامية
يصدرها
المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية

الإسلام في معركة التفريغ

يشرف على إصدارها
محمد توفيق عويضة



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

«يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ
مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَتُرِيدُونَ أَنْ تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ
سُلْطَانًا مُبِينًا» .

(سورة النساء : ١٤٤)

«يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى
أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ
فَإِنَّهُ مِنْهُمْ ..»

(سورة المائدة : ٥١)

الاسلام فى معركة التغريب الدين

لم يتعرض فرع من فروع الفكر العربى للغزو الثقافى كما تعرض « الدين » ، ذلك لان الدين كان - ولا يزال - فى العالم العربى وفى الشرق دعامة هامة من دعائم الثقافة ومقوما من مقومات الأمة العربية ، وعنصرا حيا ايجابيا غير منفصل من عناصر السياسة والاجتماع والاقتصاد .

ولقد كان الاستعمار يعرف خطر « الدين » وأثره فى الحياة العربية ومدى أثره فى الايمان بالحرية ومقاومة الغاصب وانحاء القوة وحراسة الثغور . ولما كانت هذه العوامل من أخطر الاخطار على بقاء الاستعمار فقد كانت خطته فى القضاء على مصدر هذه القوة : وهو الدين واللغة والتاريخ . وكان الدين أهمها .

وفد أعد خطته فى مقاومة الدين على نحو دقيق خفى يسرى فى معالم الفكر والحياة سريانا بطيئا حاسما فى المفاهيم المختلفة . وقد امتدت هذه الخطة فشملت الثقافة والصحافة والتعليم والترجمة والبعثات الأجنبية ومفاهيم الاجتماع وتحرير المرأة . ومن أجل هذا انطلقت دعوات الاستشراق والتبشير وظهرت مجموعات من دعاة التغريب . ولما كان دين الغالبية فى العالم العربى هو الاسلام فقد كانت الحملة كلها قد ركزت عليه باعتباره مصدر الثقافة والفكر والتراث المشترك .

ولقد استهدف الغزو الثقافى الى محاربة الاسلام للقضاء على روحه القوية فى مجال الحياة والفكر حتى تنطوى قوته وفاعليته فى مجال الاستعمار .

كان التعصب الدينى واضحا فى هذه الحرب . التى صدرت عن حقد بالغ وخصومه عنيفة . ولم تصطنع فى اى جانب من جوانبها (المنهج العلمى) الذى ابتدعه الغرب واقام على اساسه ابحاثه ونتائجه .

الإسلام : دين وحضارة

وكان أبرز الأخطاء التى طبقها الغرب فى الحديث عن « الاسلام » انه لم يحاول ان يفرق بين المسيحية والاسلام فى مفاهيمها ومقوماتها .

ولذلك حمل فى الحرب على الاسلام نفس المعاول التى حملها فى محاربة المسيحية ابان عصر النهضة بغية اقصائها عن الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية بعد أن تبين للغرب جمودها وعجزها عن مسايرة التطور . وبعد ان فسدت أساليب الكنيسة وظهرت اخطاء رجال الدين فى تسلطهم واستبدادهم وجمودهم ووقوفهم فى وجه الحرية والنهضة وغلوهم فى التعصب وبعدهم عن التطور .

ولقد كان الاسلام مختلفا أشد الاختلاف عن المسيحية فى هذه الناحية ، فان الاسلام لم يكن ديناً فحسب ولكنه دين ونظام اجتماعى واقتصادى وسياسى كامل ، ولقد كان الاسلام متطوراً دائماً وقادراً على الاستجابة للحضارة والزمن والبيئات المختلفة . وقد دخل هذه التجربة من قبل ولم يكن للاسلام كهنوت له صفة السيطرة والتحكم فى الناس والوساطة بينهم وبين الخالق .

ولذلك فان المقارنة بين المسيحية والاسلام من هذه الناحية باطلة كما ان محاولة اخضاع الاسلام كدين ونظام لما خضعت له المسيحية - التى هى دين فحسب - ليس من الحق فى شئ .

ولكن التعصب وشهوة الحقد الأعمى والرغبة فى القضاء على روح الدين وتنحية الاسلام عن نفوذه فى الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية حالت بين دعاة التغريب والغزو الثقافى وبين كشف هذه الحقائق . ولم يستطع اتباع المستشرقين والمبشرين من مفكرينا التعرف الى هذه الفوارق لانهم اتصلوا بالفكر الغربى قبل ان يستكملوا مفاهيمهم فى الفكر العربى ومقوماته .

واذا كان للاسلام فى هذه الفترة التى بدأ فيها الغزو الثقافى مفضل فانما كان فى تطبيقه لا فى مقوماته وأصوله . هذه المقومات والأصول التى ظلت طوال القرون ضياء هاديا وقوة حية . فان انصراف المسلمين عن مفاهيم الاسلام وضعف الحكومات وسيطرة الأتراك العثمانيين اربعمئة عام والتخلف فى ميادين الحرب والسياسة . والانصراف عن القوة والمقاومة . قد أحل عصرا من الضعف والركود والتواكل والقوقعة وفرض سلطان الحكام المستبدين والعلماء الجامدين الذين أغلقوا باب الاجتهاد ووقفوا عند التقليد مما خلق غشاء دقيقا من الأوهام والبدع والخرافات التى حاولت ان تحجب جوهر الاسلام ونقاءه . وتحجزه وراء طبقة كثيفة من هذه الزيوف .

غير انه لم يخل جيل من مصلح ينبرى ليكشف هذه الزيوف ويرفع هذا الغشاء ويدعو الى الاسلام المصفى . ويحاول ان يعود بالناس الى بساطة الاسلام الاول - ويسره وحقيقته الكامنة المختلفة .

وقد كانت دعوة محمد بن عبد الوهاب في اواخر القرن السابع عشر الميلادي هي نقطة الانطلاق في تحرير الاسلام من زيوف القرون الثلاثة التي فرضها الحكم العثماني الجامد الذي انتهى الى الضعف والفساد ، بينما بدأت اوربا تستيقظ وتنقل آثار العرب وتترجمها وتكون حضارتها وثقافتها الجديدة وتتنبه الى دورها في القضاء على الاسلام والسيطرة على الشرق في محاولة للانتقام من هزيمة الحروب الصليبية وخشية من اتساع نطاق الاسلام وتطويقه لأوربا عن طريق تركيا العثمانية التي وصلت الى اسوار « فينا » وبعد ان توقفت من الجانب الآخر عن طريق الاندلس عند مصب نهر اللوار .

ولقد كانت خطة الغرب في السيطرة على العالم العربي والاسلامى تهدف أساسا في القضاء على الاسلام :

- ١ - كقوة حرة قوية لا تقبل الذل والاحتلال .
 - ٢ - القضاء على جوهر الدين في مفاهيم الجهاد والمقاومة والحرية .
 - ٣ - اقضاء الاسلام عن الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية .
- وقد اتجهت حملات الفزو الثقافى الى وجهتين :
- ١ - الدين بصفة عامة .
 - ٢ - الاسلام بصفة خاصة .

ولما كانت الحملات موجهة من الفكر الغربى المسيحى فان كل الحملات التى وجهت الى « الدين » كانت مقصودا بها الاسلام أساسا .

وقد تمثلت هذه الحملات على الدين في انه ظاهرة من الظواهر الاجتماعية لم ينزل من السماء ولم يهبط به وحى وانما خرج من الأرض كما خرجت الجماعة نفسها .

وان الديانات قيود واغلال التزمها الناس بدعوى انها منزلة خالدة ، وان وضع الدين فى جانب العقل يقضى بهدمه ، وان الدين لا يخلق الانسان . ولكن الانسان هو الذى صاغ الدين ، وليس الدين الا صدى الالم الذى يتردد فى نفوس المظلومين وان الدين حادث (عمرانى) له قدره (التاريخى) وليس له صلة بالاقتصاد .

الحملة على الاسلام

وقد واجه الاسلام حملات غزو ذات جوانب متعددة منها :

- ١ - الحملة على مفاهيم الاسلام وكتابه ورسوله وتاريخه .
- ٢ - الغزو عن طريق بعث اديان جديدة كالبايية والبهاية .
- ٣ - الغزو عن طريق تعميق تيار الالحاد فى العالم العربى .

- ١ -

وكانت الحملة التى قادها المستشرقون والمبشرون منذ ١٨٣٠ قد حاولت ان توهم بنهاية الاسلام ، ففي اوائل القرن العشرين كان هناك رأى يرى ان الاسلام « لم يبق من عمره الا قرنان » وهى نبوءة السياسى المؤرخ « برايس » الذى قال ان احتكاك الاسلام بالحضارة سيقضى عليه ويؤذن بنهايته .

او ان الاسلام سيذهب بذهاب الدولة العثمانية (الدكتور برون .ك. العرب والافريقيون) .

او ان الاسلام قد يبقى اذا ترك لنفسه ، اما اذا احتك بالتمدن الحديث فانه يموت لا محالة (المستشرق لنز بعد سياحته فى تومبكتو) .

وفي الحالات الثلاث التي تنبأ بها المستشرقون والمبشرون الغربيون لم ينته الاسلام وكذبت نبوءاتهم ، ولم يذهب الاسلام نتيجة لذهاب الدولة العثمانية ولا بعد احتكاكه بالعلم والمدنية ، ولم يصدق أيضا ما ادعاه غيرهم من أن انحطاط المسلمين يرجع الى اسباب متصلة بالاسلام نفسه لعدم موافقته لروح التمدن - كما ذكر المستشرق يشون الالماني ١٨٨١ في كلامه عن تأثير الاسلام في حياة اصحابه - كما حاول كتاب الغرب دائما تصوير المسلمين بصورة العدد القليل وذلك بايراد احصائيات مضللة :

ومع ذلك فقد عجزوا عن اخفاء الحقائق . فقد أشار المستشرق (مرجليوث) في بحث له عن مستقبل الاسلام (الهلال مجلد ١٦ - ١٩٠٦) ان الاسلام غالب في افريقيا وشائع في آسيا ومعروف في أوروبا وأمريكا . ولم يظهر ما يدل على توقف انتشاره وخصوصا في القرن الماضي لأنه نهض نهضة جديدة .

وأورد قول المبشر « شاتليه » من ان الاسلام هو الدين الوحيد الذي يرتقى الآن وينتشر في الهند والصين . أما الأديان الأخرى فإنها آخذة في الانحلال كما أورد ما ذكره أحد كبار المستشرقين من ان الاسلام سيعم الهند كلها وقال ان جماعة كبيرة من الهنود يعتنقون الاسلام ليتحرروا من قيود الديانة البرهمية وكهانها .

وان الاسلام قد انتشر مؤخرا في بلاد الصين حتى أوجس أهل أوروبا من انتشاره مخافة ان يصير ديانة المملكة فيحمل أهلها على الممالك النصرانية في أوروبا مثل الحملات الصليبية في العصور المظلمة . وأشار الى ان الاسلام ينتشر في الهند والصين ومستعمرات هولندا بالموعظة الحسنة .

وأشار « مرجليوث » الى ان الاسلام انتشر فى افريقيا
بالحسنى بعد ان انتهى عهد الدراويش ، وقد كان الظن ان يتوقف
بعد ذهاب الحركة المهدية ، والحقيقة أنه لا يزال آخذاً فى
الانتشار .

وكذب « مرجليوث » ما رواه زملاؤه المستشرقون من أن
انحطاط المسلمين يرجع الى اسباب متصلة بالاسلام وقال : انى
أرى المسلمين تحت سلطة المسيحيين أرقى من المسيحيين عقلاً
وأدباً ، واستشهد بقول المستشرق « روبل » الذى ذكر بعد سباحة
للحبشة ١٨٣٨ ان الأحباش المسلمين أقدر على العمل واسمى
مداركاً وأكثر تهذيباً وعلماً من الأحباش المسيحيين .

وأشار « مرجليوث » الى ما ذكره الرحالة ستيفن هيدن
بعد زيارته لآسيا من ان أحد المبشرين قضى فى عمله عشر سنوات
فلم يستطع تحويل مسلم واحد الى النصرانية وان عشرات من
زملائه عجزوا مثله وان دعاة النصرانية قد ينجحون فى البلاد التى
لم يكن للمسلمين فيها دولة فى عصر الاسلام . « ا.هـ » .

- ٢ -

وإذا كان مرجليوث قد حاول انصاف الاسلام ، فان الأب
لامنس اليسوعى (المشرق : م ٢٨ « ١٩٣٠ » ص ٧٣٨) قد ساقه
التعصب الى كثير من المغالطات .

وان كان قد ذكر ان انتهاء (الخلافة الاسلامية بعد مرور ست
سنوات لم يحدث شيئاً من العقبات داخل الاسلام وخارجه وذلك
فى قوله :

« وهكذا بعد أن مضى ست سنوات على القرار الكمال
القاضى على الخلافة فى آذار ١٩٢٤ نرى الاسلام يعيش وهو لا

يكاد يشعر باضمحلال تلك المؤسسة العليا ، وقد ركز (لامنس) هجومه على الاسلام فى :

* تعسر اتفاق السننيين لان بينهم كثيرا من المحافظين التقليديين الذين يحلمون باعادة الخلافة القديمة .

* ان اليقظة القومية قد احدثت توسعا فى الفوارق بين المسلمين .

* ان الاتراك قد انصرفوا عن الاسلام كلية . وعن ابجدية العربية وكذلك الفرس واتجه المصريون الى الفرعونية .

* ان الاغلبية السنية فى العالم الاسلامى تنطوى على فرق من الاتراك العلمانيين ومن المسلمين الشيعويين المقيمين فى الجمهوريات السوفييتية . والعصريين المبشرين فى مصر والهند .

* الخلاف بين السنة والشيعة .

والواقع ان تقرير (لامنس) للاسلام على هذا النحو انما يقصد فيه تصوير الاسلام بصورة التفسخ والتجزؤ وانقضاء وحدته وقوته ، وهو غير صحيح فان الخلاف بين المذاهب الاسلامية لم يكن فى الواقع الا خلافا املته اهواء السياسة ثم حاول الاستعمار اثارته من جديد لاستغلاله فى تمزيق جبهة الاسلام الموحدة .

وان المسلمين قد تنبهوا الى مؤامرات الاستعمار . وتلاقوا على مقاومته ، وعلى الشك فى مقومات الفكر الغربى القائمة على التعصب والهوى ، وآمنوا بضرورة التجمع والاتحاد فى سبيل دفع عدوانه ، وقد حقق الفكر العربى تطورا واضحا فى هذا السبيل حطم كل ما وهمه الاب لامنس ومن وراءه .

وان الفريق الذى اطلق عليه (لامنس) اسم العصريين قد تنبه مبكرا لخدعة الغرب ضد الاسلام ومدى الفارق البعيد بين شعارات الحضارة الغربية البراقة وواقعها الدامى المختفى تحت كلمات الحرية والاخاء والمساواة .

وقد صور (لامنس) نتائج مؤامرة الغزو الثقافى الموجهة ضد الاسلام حتى عام (١٩٣٠) وما حققته فى ميادين التعليم والأزهر وترجمة القرآن وتحرير المرأة فقال :

١ - ان التعليم القرآنى هو فى تأخر مستمر ومطرود حتى فى البلاد الاسلامية المستقلة وان ابرز مظهر لذلك هو تطور التعليم الرسمى ولا سيما فى المعاهد العالية والثانوية « فهو يتحرر شيئاً فشيئاً من تأثير الدين حتى يصبح لا دينياً محضاً كما هى الحال فى تركيا » .

٢ - ان دعاة التطور العصرى قد مدوا أصابعهم فى داخل الأزهر فاغتنموا حاجته الى الاصلاح وتدخلوا فى ادارة الدروس وتعديل البرامج التى حورت مرات حتى غدا تأثير ذلك المعقل العلمى على شفيرها ، ففقد فى عشرين سنة ثلاثة أخماس طلابه وهكذا القول فى مدرسة الزيتونة فى تونس . فاذا أضفنا الى هذا الروح العصرى السائد فى الجامعة المصرية الجديدة والمستمد مبادئه من النقد الأدبى فهمنا انه أبعد من ان تثبت الشببية الاسلامية فى مبادئها الدينية وعقائدها ، وادركنا الصدمة القومية التى يعانىها اليوم الاسلام التقليدى .

٣ - محاولة تطبيق القرآن على ذوق العصر والأفكار العصرية والميول الظاهرة فى العالم الاسلامى للتخلص من الحرمات القرآنية الشديدة فيما يختص بفائدة المال وآراء الأئمة الاقدمين فى الادانة والربا .

٤ - فى العالم الاسلامى اليوم حركة نسوية ترمى الى نزع الحجاب واعتاق النساء وتحتج على استئثار الرجل وحده بحق الطلاق وعلى التقاص حق المرأة بالارشاد والشهادة وقد حدثت فى بلاد العرب وسوريا والعراق والجزائر ولا سيما مراکش . وقد عقد مؤتمر للمرأة فى دمشق واحتججن كلهن على الحجاب احتجاجات شديدة ولكن لم تكن منهن من تجرات فرفعت زاوية من خمارها » .

ولا شك أن ما أورده الأب لامنس في تقريره بعيد في كثير من تفاصيله عن الحقائق الواقعة ، والواقع أن الاسلام قد استطاع أن يلائم بينه وبين الحضارة في مختلف فروع الحياة .

ودعا الأب « لامنس » المسلمين أن يتهجوا نهج تركيا في السير مع التيار العصري واتخاذ المؤسسات الغربية بكاملها كما فعلت « بقصد محاربة أوربا بسلاحها نفسه » وأشار الى أن الاسلام لا يمكنه الاستمرار في عزله والا كان عرضة للصدمة فالسقوط .

والواقع أن الاسلام لم يعتزل الحياة مطلقا . وانه كان قادرا دائما على الالتقاء بالحضارة والتجاوب معها . وانه حاول دائما أن يلائم بين عقائده وقيمه وبين الحضارة الغربية وانه رفض أن يقبل منها ما يتعارض مع هذه القيم والعقائد .

وقد أعرب الأب لامنس بأن عدد المسلمين في ازدياد متصل وانهم زادوا ٢٠ مليونا في أربع سنوات (١٩٣٠) وأن سكان الجزائر زادوا في مائة سنة خمسة اضعاف منذ كانوا مليونا فاصبحوا خمسة ملايين . وعزا زيادة عدد المسلمين من انهم يقومون بنشر الدعاية لدينهم فيستميلون بعض جيرانهم من الزوج في افريقية وأبناء اللغوف السفلى في الهند وانهم في سبيل نشر الدعاية الاسلامية اسسوا مدارس خاصة يربى فيها المرسلون ويدرسون اللاهوت وطرق التمارين الجدلية والمناظرات الدينية وأن أشد هذه المدارس نشاطا مدرسة الشيعيين في لکنهو بالهند ومدارس الاحمدية في قاديان ولاهور بالهند ومدرسة دار الدعوة في مصر .

- ٣ -

أما السير ريتشارد وود قنصل انجلترا في تونس فقد رفع عام ١٨٧٨ تقريرا الى وزير خارجية بريطانيا بعد دراسة شاملة للاسلام والمسلمين خلال فترة عمله لدولته في دمشق وتونس رد

فيه على جميع ما وجه القرب من اتهامات للاسلام ، وتصدي
لدفع الاتهامات الخاصة بمعاملة اهل الذمة من المسيحيين ورفضه
للاخذ بأسباب الحضارة .

١ - قال : من أوهام الناس ان الاسلام يمنع مساواة اهل
الذمة بالمسلمين فيما لهم وما عليهم وينبوا عن الأخذ بأسباب التقدم
والحضارة لانه لا يجيز انتشار المعارف والتحلى بالعلوم .

ورد هذه الأوهام الباطلة . واكد ان الاسلام يرى ان الأخذ
بأسباب التقدم لا يتنافى مع أصول الشرع . واورد الادلة على ان
الاسلام يرى أن اهل الذمة ما للمسلمين وعليهم ما عليهم ، اذا ثبت
ان غايتهم الوطنية موافقة لغاية المسلمين وانهم مثلهم فى اثار
مصلحة الوطن والخير العام . وان الاسلام يجيز استشارة اهل
الذمة فيما يتعلق بالنظمات الدنيوية ولا يمنع استخدام النصارى
واليهود واستند فى ذلك على أقوال الماوردى فى كتابه (ادب
الدنيا والدين) وأشار الى ان المتأخرين من سلاطين الاسلام
استأثروا بالسلطة واستبدوا بالتصرف فخرجوا عن منهج الشرع
الاسلامى حتى توهم الاغيار ان سبب هذا الخل هو ضيق نطاق
الشرع الاسلامى وانه لا يضمن لغير المسلمين حقوقهم .

واكد ان الواقع يخالف هذا ، لأن الاسلام يحتم على الملك
وسائر الحكام ان يفعلوا كل ما يدعوا الى حسن توزيع العدل
والانصاف فى الحكم والتجرد من شوائب الأغراض والحظوظ
الشخصية .

٢ - وعرض ريتشارد وود للزعم الغربى الذى يزعمه مؤلفو
الافرنج من أن المسلمين لا يتسنى لهم التقدم والارتقاء فى معارج
الحضارة ما داموا مقيدون بنصوص القرآن التى يقولون انها لا تلائم
المعارف واكتساب الفنون . وقال ان هذا وهم نشأ عن الجهل
بمقاصد القرآن . ويكفى برهانا على بطلانه تاريخ صدر الاسلام

وعناية علماء العرب بالمعارف والفنون ودرسهم كتب الحكماء
الأقدمين مثل أرسطو وأبقراط وأقليدس وبطليموس .

وقال : ان أكبر بواعث سوء الفهم هو انتشار الظن في أوربا
بان الاسلام دين القوة والسيف . وهذا الظن مخالف للواقع
ولطبيعة الاسلام لما جاء في القرآن .

١ - وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا ان
الله لا يحب المعتدين .

٢ - لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم
يخرجوكم من دياركم ان تبروهم وتقسطوا اليهم ان الله يحب
المقسطين » .

وأشار الى ان الباحث المدقق في أسباب الفتن التي سفكت
منها الدماء في المشرق يعلم ان الباعث الوحيد في حدوثها هو
اصبع السياسة الأجنبية التي تنتهز الفرص لابقاء نار الثورة بين
ذوي الأحقاد . وقال : من هذا القبيل واقعة الدروز والموارنة
وواقعة الصقالبة والبلغاريين فقد تبين ان الاعتداء انما يبتدىء من
جانب النصارى (كان ريتشارد وود صاحب التقرير قنصلا لدولته
في دمشق ١٨٦٠ ابان الفتنة المشهورة) .

وقال انه لا يجوز الظن بأن المسلمين ينفرون من مجلس
الشورى ويروونه تقليدا أوربيا .

- ٤ -

واعترف (جورج سارتون) الأستاذ بجامعة هارفارد بأن
الاسلام من أصلح النظم الدينية وأجملها على حسد تعبيره . وهو
عندنا أصح تلك النظم وأجملها على الإطلاق ، ولكن المسلمين اليوم
كثيرو البعد عن حقيقة ما جاء به الاسلام ، وأورد عبارة الشيخ
محمد عبده « الاسلام محجوب بالمسلمين » وقال : اننا اذا نظرنا

الى الاسلام من خلال اعمال المسلمين لم نر تلك المبادئ جلية واضحة واكد ان المسلمين يمكن ان يعودوا الى عظمتهم الماضية والى زعامة العالم السياسية والتعليمية كما كانوا من قبل . ولكن هذا لن يكون الا اذا عادوا أولا الى فهم حقيقة الحياة فى الاسلام والعلوم التى حث على الأخذ بها .

وأشار (سارتون) الى ان الهزائم السياسية التى منى بها الاسلام لم تزعزع ثقة المسلمين بأنفسهم بل هى على العكس زادت من غرورهم .

ويتنبأ بأن المسلمين سيعودون الى قيادة العالم مرة أخرى « ذلك ان شعوب الشرق الاسلامى وقد قادت العالم فى مرحلتين طويلتين من مراحل التقدم الانسانى طوال الفى سنة على الأقل قبل ايام اليونان ثم فى العصور الوسطى مدة اربعة قرون تقريبا فليس هناك ما يمنع تلك الشعوب من ان تقود العالم ثانية فى المستقبل القريب أو البعيد » .

- ٥ -

وعرض المستشرق (ه . ا . جب) لموقف الاسلام من الحضارة والفرز الثقافى ودعوة التفريب (الهلال - م ٤٧ ص ٨٧٣) فأكد انه زعم ما تسرب الى العالم الاسلامى من اتجاهات أوربا ونزعاتها وما أصاب جماعاته من الانحلال السياسى وما بينها من التفاوت الفكرى ما زالت هناك رابطة عامة وثيقة . نشأت من العقيدة والثقافة الدينية المشتركة وهى تؤلف بين المسلمين فى الشعور والرأى والمصلحة .

وأشار جب الى ان المسلمين ما زالوا متمسكين بدينهم متشبثين بعقيدتهم مؤمنين أثبت الايمان بان الاسلام خير الأديان . وان الاسلام لا زال حتى يومنا هذا (١٩٥٠) عقيدة دينية راسخة وقاعدة اجتماعية ثابتة ونظاما خلقيا وطيدا .

وعرض جب لتجربة الاسلام مع الحضارة الحديثة فقال :
ان الاسلام استطاع ان يوفق بين الحضارة ونظمه وبذلك مر بأزمة
الاحاد . وقال : ان الوحدة الاسلامية حقيقة قائمة تزداد على الأيام
قوة وجللاء ودلل على ذلك بأنه ما يكاد يغشى ربعا من ربوع الاسلام
اى حادثة خطيرة حتى تذيبها الصحف فى ارجاء اسيا وأفريقية
باسلوب مثير عنيف فلا تلبث أن تتجاوب وتتلاقى .

وقال : ان مقتل الشهيد عمر المختار كان له دوى وان أرجاء
العالم الاسلامى من مراکش الى جاوه قد اضطربت له اكانما قد
مسها تيار كهربائى كاد يصعقها) وأشار جب الى دور الاسلام
اليوم بالنسبة لمادية الحضارة وانهيارها المعنوى فقال : انه ما يزال
للالسلام رسالة يؤديها الى الانسانية جمعاء ، فهو يقف فى وسط
الشرق والغرب . وقد اثبت اكثر مما اثبت أى نظام سواء مقدرته
على التوفيق والتأليف بين الأجناس المختلفة « واذا لم يكن بد من
وسيط يسوى ما بين الشرق والغرب من نزاع وخصام فهذا
الوسيط هو الاسلام » ولم يفت جب ان يشير الى ان الاسلام من
حيث هو « عقيدة دينية » لم يفقد الا قليلا بتأثير الغزو الغربى -
ولكنه تنحى عن عرشه من حيث هو قاعدة اجتماعية تسود الحياة
وتوجهها ، وذلك بعد ان قامت الى جانبه قوى تحكم فى بعض
الأحيان بما يناقض تعاليم الاسلام وان الاسلام كله الى عهد قريب
هو كل شىء فى حياة المسلم . وكانت حياته الاجتماعية واتجاهاته
الفكرية مستمدة من الدين ومقتربة بالاسلام وأشار الى ما بذله
محمد عبده وتلاميذه من الجهود التى عملت على التوفيق بين
تعاليم الاسلام ونظمه وبين مطالب الحياة الحديثة وأساليبها « ١٠ هـ

- ٧ -

وقد وجد الاسلام من كتاب الغرب بعض المنصفين الى جانب
الكثرة الغالبة من خصومه المتعصبين من أمثال : هنرى دى كاسترى

وسيديو وجوستاف لوبون واسحق بطر وواشنطن ارفنج ولو
تروب استوارد وتوماس كارليل وولز .

وفي مثل قول اللورد هدى : الذى يرى انه لو نذبت لجنة
من الانجليز الاكفاء لفحص الدين الصالح لأن يتدين به العالم
كله لأجمعوا على اختيار الاسلام .

او قول الدكتور كونسيان سنوك هيرجرونحيه * البلاغ
الاسبوعى ٢٧ نوفمبر ١٩٢٩) بان الاسلام لايقاوم النصرانية ، لان
الاسلام فى المستقبل سيشكل نفسه حسب حاجات العصر
الحديث . ولن يدع النصرانية تغلبه وتسلبه أبناءه الذين كسبهم
من مئات الاجيال . وقد طبعوا بطابعه وصاروا جزءا منه وهم
يمثلونه فى سائر بقاع الارض .

ويؤكد ان المسلمين سيستمرون فى دينهم مهما اتخذوا من
الثقافة والمدنية الغربيين . ويقول انه فى الجامعات الكبرى نجد
الكثيرين من المسلمين ولكن مجرى عقولهم لايزال اسلاميا . وقال
انه كان يعرف الطالب المسلم من غير المسلم فى جامعته بمجسرد
الاطلاع على مبحثه الذى كتبه . اذ ان فى المسلمين ميلا قويا الى
التمسك بدين ابائهم وتطبيقه على الحاجات المدنية .

ويشير المستشرق لوسين يوبا (الزهراء : شعبان ١٣٤٣ ص
٤٩٦ م ١) الى ان الاسلام يتفق مع مدنية زماننا الحاضر تمام
الاتفاق . وان التقدم الذى نشاهده فى الممالك الاسلامية منذ
قرن داييل على ان الاسلام يسير مع المدنية جنبا الى جنب وان الاسلام
سيظل موجودا دائما .

واشار الى انحطاط العالم الاسلامى فقال : ليس الذنب فى اكثرها
على المسلمين وانما هو نتيجة الحكم المطلق ، وجهل الحكومات
الذى ادى الى انتشار الجهل واضطرار دول الاسلام الى خوض
حروب كثيرة . والعجز عن توزيع العدل وسوء خطة الغربيين فى
معاملة الشرقيين .

الدين في نظر العلم

وركز دعاة الغزو الثقافى والتغريب حملاتهم على جوانب متعددة فى الدين عامة والاسلام بصفة خاصة تنصب على أصول الاسلام . وقد وجه (هانوتو) الحملة على القدر والتوحيد . وهاجم مستر سكوت الاسلام وادعى انه دين حرب دائم مع غير المؤمنين به - وقد كان كتابه عن الاسلام الملىء بالمطاعن مما يدرس فى مدارس مصر (١٩١٥ وما بعدها)

وركز (ارنست رينان) هجومه على التناقض بين الدين والعلم محاولا اثبات انهما عدوان لدودان . وقد حاول علماء (المادية) فى القرن الثامن عشر والقرن التاسع عشر أن يؤكدوا أن عهد (الدين) قد انقضى . وأن بقاءه على الارض مرتبط ببقاء السذاجة العامة . وقد كذبت الاحداث ادعاءهم . فان العلماء لم يلبثوا أن توصلوا الى وجود عالم روحانى وراء هذا العالم لا يمكن انكاره ، وأعلن ذلك فى المجتمع العلمى لما وراء علم النفس ١٩٢٠ ومؤتمر الاساقفة الانجيليكاني فى لامبيت وأنشئ كرسى لهذا العلم فى كل من جامعتى كمبردج واكسفورد .

وكف العلم عن غروره فى نهاية القرن التاسع عشر واعترف بأن لابد للمعرفة من وسائل اخرى غير وسائل الحس ووسائل التفكير وانه لابد من (البصيرة)

واستأنف العلماء مراجعة تصوف الهند واليونانيين والعبرانيين والمسيحيين المليون لبحث اساس روحى للحضارة . وأعلن (اوجست

كونت (الديانة الوضعية وبذلك تحطمت نظرية (نهاية الدين) التي أعلنها دعاة المادية وكانوا يعتقدون أن العلم الحديث سيحل لهم كل شيء ويكشف لهم عن كل شيء

وجاء علماء يقولون ان مذهب (دارون) فرض وليس حقيقة غير قابلة للنقض . وان الاساس الذي قامت عليه المذاهب العلمية قد انهار . وان العلم ليس كل شيء فى الوجود . وان الدين وسيلة للسمو بالانسان الى مرتبة ارفع (الدكتور محمد خليل عبد الخالق) - الهلال م ٣٩ ص ١١٣٧) وأصبح العلم يسلم بوجود ما ليس قائما أمام الحس . وبدأ عصر اعتقاد و يقين بالقوى الخفية . . . واتسع التحقيق العلمى للمجهول وأخذ العلماء يعترفون بأن الحقيقة كامنة وراء المظاهر . وان الكون ليس حقيقة فى ذاته وانما هو المظهر الوحيد للتعبير عن الحقيقة (دكتور على توفيق شوشة - نفس المصدر)

حملة الاحاد

ركز الاستعمار حملة ضخمة من الغزو الثقافى على « الدين » فى العالم العربى . وهدفها مهاجمة جميع الأديان وزعزعة العقائد وخلق تيار عميق المجرى من « الاحاد » وكانت أوروبا قد واجهت معركة ضخمة بين الاحاد والدين فى القرن السادس عشر حين وقف رجال الكنيسة أمام النهضة محاولين مقاومة كشوفها واتهام اعلامها بالكفر والاحاد . وقد نشأ الاحاد نتيجة لهذا الصراع الذى استعمل فيه رجال الدين سلطانهم فأسرفوا فى البطش بخصومهم عن طريق محاكم التفتيش ثم انتصر العلم واعلن عقوقه ومهاجمته للدين عامة . . . وساعده على ذلك ظهور المذاهب المادية المنكرة لوجود الخالق والأديان والكتب المقدسة والأنبياء .

وقد حرصت علوم الطبيعة والفلسفة والكيمياء والجغرافيا
والفلسفة أن تنقصر الدين وتناقضه في كل قضاياها .

وبلغ الالحاد غايته في منتصف القرن التاسع عشر ثم عاد
ينحدر مرة أخرى بعد أن أثبتت الكشوف وجسود الروح . وعادت
الفطرة الانسانية الى خطها الاساسي وقد نقل الاستعمار ميدان
المعركة الى العالم العربى فى حملة الغزو الثقافى ومن المسيحية الى
الاسلام مع الفارق البعيد بينهما .

فالاسلام لم يقاوم الحضارة ولم يعارضها كما عارضها
الاكليروس ، بل التقى بها دائما . ولم يتعارض الاسلام مع العلم
كما تعارضت المسيحية .

ولذلك فان حملة الالحاد قد حاولت أن تتخذ حججا أخرى
لتعميق مجرى الالحاد فى العالم العربى .

وكانت حملة الالحاد التى حمل لواءها دعاة التغريب فى بلادنا
هو ان الدين يقيم حياتنا على اساس من التواكل وأن المتدين يبدأ
بحثه من الوجود حوله فينتهى للخالق ومنه للطبيعة . بينما الغربى
يبدأ من العالم المنظور لينتهى لعالم الغيب . وهذا التباين فى منزع
التفكير ذهب بالمتدينين الى الاعتقاد بأن العالم حادث ، وأن الخالق
مطلق التصرف فى الكون منفصل عنه ومدبر له . وأنه السبب لكل
ما يحدث والعلة الأولى والاخيرة لكل ما يكون وما سيكون .

وان الفرد المتدين فى الشرق خاضع لارادة عليا هى ارادة
الخالق الحرة يقضى فيكون ويقدر فيحدث . أما الغربى الملحد فانه
يتبع فى تصرفاته وسلوكه نواميس الحياة ويخضع لها .

وان المتدين يستسلم للغيب استسلاما محضا ، بينما فى الغرب
يناضل الملحد قوى الغيب « اسماعيل أدهم - الرسالة » سبتمبر

١٩٣٨ ، وحمل دعاة الالحاد لواء الدعوة الى القول بأن الاسلام هو سبب تأخر الشرق . وأن الدين يضع القيود ضد الحريات فى الأدب والأخلاق ولذلك يتأخر الفن والأدب فى ظل الدين وأباح دعاة الالحاد نقد القرآن والنظر فى آياته وتبين ما فيها من فروق وصفوها بالقوة والضعف .

الاديان الجديدة : البابية والبهائية والقاديانية

وقد حارب الغرب الاسلام بالدعوة الى اديان جديدة كالبايية والبهائية والقاديانية ، ولا شك أن ظهور الدعوات الجديدة التى تحمل أسماء الأديان والتركيز عليها واهتمام الصحف والمجلات بالدعوة لها وإذاعة مبادئها والحديث عنها إنما كان عملاً واضح الدلالة والأثر فى حرب الاسلام ومحاولة القضاء عليه وقد أكد ذلك الدكتور تشارلس آدمس حين قال أن « البابية » كانت وسيلة للاستغلال من الاسلام للنصرانية .

وقد حرص دعاة التغريب على حمل لواء الدعوة الى هذه الأديان وداومت الهلال والمقتطف والمجلة الجديدة والعصور والأهرام والمقطم نشر أبحاث مطولة عن البابية والبهائية .

وقد كان موت زعيم البهائية : عباس عبد البهاء « نوفمبر ١٩٢١ » مناسبة لحملة طويلة عريضة . فقد أشارت الصحف أنه كان لنعيه وقع عظيم فى نفوس البهائيين فى أقطار المعمورة . وقد نشرت الهلال التى أوردت الخبر تفاصيل كاملة عن مبادئ المذهب البهائى وأهمها أن أساس الأديان واحد وأن الطقوس التى دخلت عليها أدت الى التفرق والانقسام .

وقالت ان البهاء رعى الى تأسيس دين عملى نظر فيه الى تقويم الأخلاق ووجه دعوته الى العالم كله وليس الى الشيعة فقط . فكتب

الى ملوك الارض وقالت ان البهائية فرع من البابية التي ظهرت فى السبعينات من القرن الماضى عن طريق الميرزا على محمد الباب « المتوفى ١٨٥٢ » وأن الباب رمى الى اصلاح الدين الاسلامى .

وقد أشار سلامة موسى فى المجلة الجديدة « فبراير ١٩٣٠ » أن البهائية دين جديد يوافق النزعات الجديدة . وقالت أن هذا الدين يجب أن يلقى تأييدا فى مصر حتى ينتشر بين الطبقات التى لا تجد من الأديان السائدة او من العلوم والآداب ما يقنع نفوسها وقال : ان فى انتشار البهائية كبت للتعصب ودعوة الى أخاء البشر . وأن تنزل على حاجة العصر الحاضر الذى يكره فيه تعدد الأديان . وماتجلت فى مخالفة بعضها للبعض من تحزبات وتعصب .

ونشر « عمر عنایت » فى مجلة العصور أبحاثا متصلة عن البابية والبهائية وتعاليم البهائية وبشر عبد الجليل سعد الناس بالدين الجديد فى مجلة العصور (نوفمبر ١٩٢٩) وقال (قل هو نبا عظيم) وطالب الناس ألا يتعجلوا الحكم عليه فانه سيتم به اتحاد الشرق والغرب والأديان والأجناس وبه تزول الحروب .

وترجمت العصور كتاب المبشر ج . سلمنت عن « بهاء الله والعصر الحديث » ونشر عباس العقاد فى الهلال بحثا بعنوان ساعة مع عبد البهاء « يناير ١٩٣٠ » ونشرت الأهرام فى ٥-٥ و ١١-٥-١٩٣١ بحثا مطولا عن هيكل البهائية فى نيويورك وانتشار هذه الديانة التى « تدعو الى توحيد الأديان واللغة وترك العصبية الدينية والجنسية ونبت الحروب .

واهتمت دوائر الفزرو الثقافى والصحف بالدعوة الأحمدية « الأهرام ٢٤-٩-١٩٣٣ » التى قام بها « غلام أحمد القاديانى » مسيح الهند المولود بقاديان بالبنجاب والذى ادعى أنه المهدي

المنتظر الذى يؤمن به المسلمون وينتظرونه وتتلخص عقيدتهم فى موت السيد المسيح ودفنه وعدم انقطاع الوحي والنبوة غير التشريعية وعدم النسخ فى القرآن .

وقد هاجمهم رشيد رضا د الأهرام ٢٧-٩-١٩٣٣ ، وقال ان دعوى غلام أحمد بأنه المهدي المنتظر دعوى باطلة . وأن القاديانى ادعى أولا أنه المهدي ثم ادعى أنه المسيح الموعود به وأنه يوحى اليه وجاء بسخافات من النثر والشعر وزعم أنها تنزل عليه . وحرف كثيرا من آيات القرآن والأحاديث الواردة .

وأشار الى أنه اعتمد فى دعواه ببقاء الوحي والنبوة غير التشريعية على أقوال بعض الصوفية كعبد الكريم الجبلى فى كتابه الانسان الكامل وابن عربى فى الفتوحات المكية والشعرانى فى كتابه اليواقيت والجواهر .

حركة المقاومة ورد الفعل

ولم يقف الفكر العربى مكتوفا أمام هذه الحملات وانما واجهها بقوة ودحض أكاذيبها وكشف عن خداعها وتضليلها وتعصبها . وكشف الفشاء عن الاباطيل التى برع الفزو الثقافى فى حمل لوائها البراق . والتى خدعت الكثير من دعاة التغريب فى العالم العربى فصدقوا شعارات الفكر الغربى وكلماته ذات الرنين وخدعهم المبشرون الذين تلقوا عليهم العلم فى جامعات أوروبا . وفرنسا بالذات . أمثال ماسنيون ودوركاييم ومرسيه ومرجليوث وليفى بريل وهم أساتذة منصور فهمى وطه حسين ومحمود عزمى وزكى مبارك .

والعجيب أن كتاب أوروبا قد انقسموا ازاء العقائد الشرقية والاسلام واللغة العربية وتاريخ العرب وأمجادهم قسمين ، وأن

مفكرين ذوى قدر وصوت عال قد أنصفوا العرب ومع ذلك فإن نظريات المبشرين والمستشرقين كانت دائما لها الغلب ، وكانت هى التى تتردد فى صحف مصر والعالم العربى - لا على أنها نظريات قابلة للنقض ، ولكن على أنها حقائق ثابتة ، ومما يذكر فى هذا الصدد أن « رينان » عندما عرض آراءه عن العرب والسامية وراجعها فيها « جمال الدين الأفغانى » لم يجد أمامه إلا أن يعلن أنه سيعاود النظر فى مراجعتها على ضوء ما أورده جمال الدين الأفغانى فى الرد عليه ، ومع ذلك فإن دعاة التغريب حملوا هذه النظريات فى الهجوم على الاسلام والأمة العربية واللغة العربية كحقائق تفرض فرضا .

وقد واجه الفكر العربى فى قوة وصراحة ووضوح وعلى نفس المنهج العقلى والمذهب الغربى فى البحث كل ما عرضه المبشرون والمستشرقون وخصوم العرب والاسلام وكشف زيفه . وإبان ان هذه الحملة لم يقصد بها إلا توهين عرا الاسلام وتشويه صورته وصرف أهله عنه ، وأشاروا الى صيحة « فلادستون » رئيس وزراء بريطانيا فى عهد الملكة فيكتوريا فى مجلس العموم البريطانى وهو يمسك بيده « القرآن الكريم » ويقول « انه مادام هذا الكتاب باقيا فى الأرض فلن يقر لنا قرار فى بلادهم » .

وقد اعتبرت هذه الصيحة قاعدة للحملة التغريبية الضخمة المتصلة على الاسلام وعلى ضوئها وضع الغرب سياسته فى التعليم والثقافة محاولا الادعاء بأن الاسلام ليس فى حقيقته الا عبادات وصلوات وطرقا صوفية وأن القرآن يقرأ للبركة مع الاغضاء المتعمد والتجاهل الشامل للاسلام كنظام اقتصادى واجتماعى ونظام للحكم ونظام للتربية والتعليم .

واستتبع هذا العمل ، فصل العلم عن الدين وفصل الدين عن الدولة .

وقد عمل الفكر العربى جاهدا على رد كل الشبهات التى
أثارها المبشرون والمستشرقون ودعاة التغريب من أن كلمة الاسلام
معناها الخضوع والاستسلام ، أو أن الاسلام تاريخيا فرع من
الديانات الاسرائيلية والمسيحية (فيليب حتى «ك» الاسلام فى
نظر الغرب) وكشف عن أن الاسلام لا يعنى الاستسلام وأنه يختلف
عن كلتا الديانتين .

جوهر الاسلام

وكشف الفكر العربى عن جوهر الاسلام فى أنه عقيدة ونظام .
وان مبادئ الاسلام وتعاليمه صالحة للمجتمع على اختلاف الزمان
والمكان . وأن أركان العقيدة الاسلامية بسيطة قوامها التوحيد .
وقد أقر الاسلام حقوق الحرية والاخاء والمساواة بين البشر وألغى
العصبية وفوارق الأجناس والألوان والدماء . وجعل أساس
التفاضل بالعمل وحرمة العصبية القبلية ودعا الى الأمر بالمعروف
والنهي عن المنكر ونشر المحبة بين الناس وحمل لواء الجهاد
فى سبيل الدفاع عن العرض والأرض والوطن ونهى عن عبادة غير
الله .

وتشمل الشريعة الاسلامية كافة التكاليفات الشرعية العملية .
وتنظم العلاقات بين الناس فى الأسرة والمجتمع بما يحقق مقام مدينة
فاضلة تقوم فيها العلاقات على دعائم ثابتة ودعا الى الحج كمؤتمر
اسلامى عام .

وقد نظم الاسلام المجتمع على أساس الخلق والتعاون
والتكافل .

وأقام الأسرة على أساس المودة ونظم العلاقات بين الناس وفرض نظام الشورى فى الحكم وأعلن احترامه للكرامة الانسانية والعدالة وعدم التفریق فى القضاء بين الغنى والفقير أو الأمير والسوقة . وأعطى توزيع الأعمال بمقدار الكفاية . وعالج الفقر بنظام العدالة الاجتماعية . وجعل للفقير فى مال الفنى حقا معلوما هو الزكاة تجمعها الدولة . وأوجب على ولى الأمر أن ينفق على الفقير العاجز . وللقاضى أن يحكم له بما يكفيه من بيت مال المسلمين . وأوجب على أهل كل قرية أن يقوموا بسد حاجة فقرائها ان لم تكف الزكاة وأعطى المرأة حقها ومنحها حرية الارادة فى البيع والزواج والشراء وحث على طلب العلم وأقام الحكم العقلى فيه على اساس البرهان « قل هاتوا برهانكم » .

وقام الاسلام على قاعدة : لا ضرر ولا ضرار وعلى سد الذرائع واعطاء الوسائل واحكام المقاصد والغايات فكل ما أفضى الى مباح فهو مباح . وكما أباح اعطاء الظن الغالب حكم اليقين المجزوم به ، وقرر تقديم العقل على ظاهر الشرع عند التعارض ودعا الى المساواة بين المسلمين فى الأحكام وكذلك بينهم وبين من له ذمة وعهد ، فان لهم مالهم وعليهم ما عليهم . وعمل على تقدير كثير من الأحكام بما تعارف به الناس وأعلن أن من اجتهد وأخطأ فله أجر واحد ومن اجتهد وأصاب فله أجران .

فتح باب الاجتهاد :

وكان « الاسلام » واسع الأفق فى لقاء الحضارة الغربية الحديثة وقد حرر الفكر العربى نفسه بفتح باب الاجتهاد قبل أن تصل طلائع الغزو الغربى فان علماء القرن الثامن عشر قد دعوا الى فتح باب الاجتهاد بعد أن ظل مغلقا فترة طويلة . وأعادوا تفسير قوانين

الاسلام وكشفوا عن وجه الاسلام الحقيقي بعد أن رفعوا الغشاء الذي خلفه الجمود والتقليد في ظل الدولة العثمانية .

وكانت الحركات الوهابية والسنوسية والمهدوية . وهي حركات منفصلة قامت في الحجاز وليبيا والسودان علامات على وضوح مفاهيم الاسلام الحقيقية من تحرير الفكر وتحرير الوطن في نفوس دعايتها . قد عملت هذه الدعوات على التحرر من قيد التقليد والعودة بالاسلام الى منابعه الأولى وفي نفس الوقت قاومت الاستعمار التركي والغربي .

كما توافرت في الاسلام ، خلال معركة المقاومة التي شنها على الغزو الثقافي والتدخل الأجنبي مرونة واضحة في تقبل الحضارة .. وتمكن المجتمع الاسلامي من التطور والعمل للملاءمة بين الحضارة وبين أسس القيم الروحية والفكرية العربية التي كانت أساسا ضروريا لبناء المجتمع الجديد .

الاسلام في معركة المقاومة

بين التجديد والاجتهاد والاصلاح

لقد اتجهت أفكار المصلحين ودعاة الاجتهاد والتجديد من قادة الفكر العربي الى بحث قضايا الاسلام في مجال التطور ومواجهة الحضارة والاستعمار والغزو الثقافي وتناولت هذه القضايا بحث :

- لماذا تأخر المسلمون ؟
- هل يستطيع الاسلام تقبل الحضارة ؟
- ماهو الحد الذي يمكن اقتباسه من الحضارة ؟
- ما هو سبب الضعف هل الاسلام أم المسلمون ؟
- وقد كشف الباحثون عن أن اكبر عوامل تقهقر المسلمين هي :

أ - فساد أخلاق الأمراء والحكام الذين أعطوا أنفسهم حرية التصرف على نحو استبدادي لا يرجع على أساس مفاهيم مغلوطة بأن هذه الشعوب ليست إلا خدما لهم . وقد بلغوا في هذا غاية الظلم والعنف فكانوا يقضون على أي رجل حر يحاول أن يرددهم عن استبدادهم أو يكشف عنه .

ب - ضعف العلماء وتزلزلهم للأمراء ومحاولة تبرير تصرفاتهم والفتوى بقتل كل رأى حر بحجة أنه خرج عن الجماعة .

ج - دعة التغريب الذين يهاجمون كل قديم بما فيه الدين واللغة والتراث .

د - الجامدون من رجال الدين الذين قاوموا التطور والتجديد على نحو من الجهل والتعصب . والنظر الى الاسلام على أنه دين وعبادة فقط . وليس نظاما ومجتمعا وحضارة « شكيب أرسلان ك » لماذا تأخر المسلمون () .

٢ - وكشف الفكر العربي عن أن في نصوص الاسلام وتاريخه أدلة - أكيدة - على أنه « دين » يستطيع أهله أن يجدوا فيه كل ما يتفق مع مظاهر الحضارة والمسابقة للزمن وتطبيق الاحكام مع ملاءمة الأحوال والظروف مع المحافظة على روح الدين وأنه ليس في الاسلام ما يمنعنا من أن نأخذ من حضارة الغرب ، ما ينفعنا ويلقح حياتنا باللقاح المجدد . وأن الوسيلة الى ذلك هو ظهور الرجال الذين يفهمون روح الدين بالعقل اليقظ العارف حاجات العصر وتيارات الحضارة (محمود الشرقاوى) وأيد الشيخ محمد مصطفى المراغى هذا الاتجاه حين أكد أن القرآن الكريم حث المسلمين حثا شديدا على طلب العلم وتدبر ما فى الكون ودراسة جميع المعارف

والتأمل والبحث فى الخليفة - وقال : ان للمسلمين أن يأخذوا جميع ما فى الحضارة الحديثة من حسن لا يتنافى مع دينهم وأن يقتبسوا الرقى فى جميع النواحي العلمية ، والمادية وقد أكد التاريخ الإسلامى هذا المعنى بأن الإسلام لم يكن يوماً ما عدوا للرقى وخصما للعلم وانا لا أعتقد أن هناك قاعدة علمية صحيحة تنافى الدين الإسلامى . ١. ه .

٣ - رسم المفكرون منهج الرباط بين الإسلام والحضارة والنظر الى الإسلام من الناحية العلمية : قال محمد فريد وجدى ان هذا أصبح من أشد الضرورات الاجتماعية - نظرا لتمرّد العقول على ما لا يقوم على أسباب العلم الراهن ولا يوفى بشروط الفلسفة الوضعية .

٤ - كشف المفكرون المسلمون عن ان القصور والنقص انما سببه المسلمون لا - الإسلام ، وان مبادئ الإسلام كانت على الزمن قادرة على مواجهة التطور والحضارة وان الضعف الذى اصاب الامة كان مصدره العوامل المختلفة التى تتصل بالجمود واقفال باب الاجتهاد وغلبة البدع والقشور والتوكل وخطأ فهم عقيدة القضاء والقدر وقيام السلبية والفردية والترف والتخلف عن الزمن نتيجة لغلبة الجهل والتوقف عن الكفاح وحماية الثغور وسيطرة الامراء المستبدين والعلماء الجامدين والاستهانة بالعدو .

ولقد استغل الاستعمار بعض طوائف المسلمين كرجال الطرق الذين آزرُوا السلطات الاستعمارية فى شمال افريقية والسودان . اما الإسلام فى ذاته وجوهره فلم يكن عاملا من عوامل الضعف والقصور .

٥ - عارض المفكرون العرب فيما وصف به التفكير العربى الدينى من أنه تفكير تجريدى . واستشهدوا فى ذلك بالإسلام وقالوا ان هذا الفكر رهن بالقواعد المرسومة شبيهة بهندسة البناء العربية لا

تحتوى صورة من صور الحياة الماثلة فى بنية الانسان وملامح وجهه كما وصفه (روم لاندو) فى معاورة بينه وبين لطفى السيد (٢١ مارس ١٩٣٨ - الرسالة) وقد رفض لطفى السيد هذا الراى وقال له: « ان الفكر العربى أشد ايفالا فى الواقعيات من الفكر الأوربى وهذه شريعتنا الدينية التى استشهدت بها على نزعتة التجريدية تتناول شئون الحياة اليومية ولا تقتصر على مسائل اللاهوت والأخلاق كما هو الحال فى الشريعة المسيحية . وهى تقضى بالوصايا فى أمور المعيشة والزواج والميراث واحسب اننا اقرب الى معرفة الحقيقة حين ندرس (المخيلة المسيحية) بتصور السماء والفردوس اما المسلمون فكيف تراهم يتخيلون السماء . انها دار حقيقة فيها اللبن والعسل والمسجد وفيها الأشجار والأزهار والحدود العين (١٠هـ)

ترجمة معانى القرآن

كانت فكرة (ترجمة معانى القرآن) التى حمل لواءها محمد مصطفى المراغى شيخ الأزهر منذ عام ١٩٢٩ من أعمال مقاومة الغزو الثقافى والتغريب . ذلك أن - الغربيين كانوا قد ترجموا القرآن منذ منتصف القرن الخامس عشر (١٤٥٧) عن طريق المبشرين وتوالت الترجمات التى بلغت ٣٤ ترجمة ، وهى ترجمات مغلوطة محرفة ناقصة فى بعضها ومزيدة فى الأخرى . وقد انتشرت هذه الترجمات فى مختلف أنحاء العالم على أنها ترجمة حقيقية للإسلام ، وقد استعملها بعض من لا يعرفون اللغة العربية . ولما كان فى ذلك من الخطر ما فيه على مفاهيم القرآن وبلاغته فقد كان لابد من القيام بعمل من هذا النوع لترجمة « معانى القرآن » ترجمة صادقة .

وقد جرت معارك فكرية طويلة ١٩٣٢ ، ١٩٣٥ ، ١٩٣٦ حول ما اذا كانت الترجمة للقرآن هى ترجمة كاملة أم ترجمة معانى

القرآن ، وقد ذكرت مشيخة الأزهر ، ١٦-٤-١٩٣٦ ، أن تراجم القرآن الى مختلف اللغات الاعجمية قد شاع فى هذا العصر وان بها اخطاء واغلاطا شائنة تتنافى مع ما جاء فى الدين الاسلامى الحنيف وهى من أجل ذلك قد انشأت قسما خاصا من مجلة نور السلام - واستقدمت الاخصائيين فى اللغات الذين ناطت بهم ترجمة تفسير بعض الآيات واخذت من تفسير الالوسى والبيضاوى وغيرهما من من التفاسير .

وأشارت الى أن المراد من ترجمة معانى القرآن الكريم هو(تبسيط هذه المعانى تبسيطا محكما وتفسيرها تفسيراً دقيقاً على ان تترجم المعانى بعد ذلك . وقالت أن القرآن لفظ عربى معجز وله معنى . أما نظمه العربى المعجز فلا سبيل الى نقل خصائصه لأن هذا مستحيل استحالة قطعية .

ودعا محمد فريد وجدى الى ترجمة القرآن ترجمة صحيحة كاملة وذلك حتى يكون بنجوة من تحريف المحرفين وقال ان هذا العمل خير من أن يترك للمترجمين من متعصبة الأمم يحرفونه ويشوهون معانيه .

ونعى فريد وجدى على اصرار بعض العلماء على حبس الاسلام فى دائرة العربية التى لا يحسن فهمها غير أهلها وتجريده من الأسلحة العالمية وهى اللغات الحية للدفاع عن نفسه ، وقال ان وضع القيود غير المعقولة فى مسألة نقله يقضى عليه بهزيمة منكرة تقع نتائجها علينا وعلى أعقابنا قروناً طويلة . ومعناه صيده عن الجولان فى الدورة الفكرية العالمية مع غيره من كتب الاديان واسفار المذاهب .

وقال : ان الاكتفاء بترجمة تفسير لا يؤدى الغرض المطلوب من نشره ، لأن - المفكرين فى العالم يحبون أن يتأملوه عاريا من زخرف التفاسير والشروح وألوان الآراء والافهام لمعرفة قيمته الذاتية .

وقال ان كل ما يخشى منه ان يوكل امر البيت فى هذا الشأن لمن لا يعرفون لغات اجنبية فيخيل اليهم انها لغات بربرية تخلو من جميع الزخارف اللفظية والمعنوية التى توجد فى العربية ، وقال ان تعطيل القرآن عن الترجمة الحرفية والزج به فى معترك الافهام الى اليوم قضى عليه بأن لا يكسب انصارا من الامم الغربية فصار قاصرا على الامم الشرقية التى رضيت ان يكون حظها من دينها كحظ البغاء

واشار الى حركة الاتراك التى اثرت فى العالم العربى اعظم تأثير وابلغه وزاد اعجابه بها عند اقدامهم على كسر هذا السياج الفولاذى الذى وضعه المتأخرون امام ترجمة القرآن مع جوازه فى اقدم المذاهب الفقهية (٧-٧-١٩٣٢ الهرام)

وقد عارض ترجمة معانى القرآن كثيرون فى مقدمتهم الشيخ محمد سليمان وكيل المحكمة العليا الشرعية الذى وصفها بأن وراءها غرضا استعماريا هو القضاء على القرآن - تمهيدا للقضاء على الاسلام وتابعه محمد الهياوى وعارضها كذلك الشيخ الطواهرى وكان الخلاف سياسيا فى الغلب .

ومما يذكر ان اول ترجمة للقرآن كانت باشارة بطرس فيزابلس رئيس كنيسة كلنية وقد تمت ١١٤٣ م وظلت مختفية نيفا واربعمالة سنة حتى طبعت ١٥٤٣ ونقلت بعد ذلك الى الايطالية والهولندية . وترجم القرآن الى الفرنسية وطبع ١٦٤٧ ولم تكن ترجمة صحيحة وبها نقص وزيادة ، وترجم الى اللغة الالمانية ١٦١٦ والهولندية ١٦٤١ والروسية ١٧٧٦ والايطالية ١٥٤٧ والانجليزية ١٧٣٤ والعبرانية ١٦٣٤ - والآرامية ١٧٩٠ والفارسية ١٨٢١ والجاوية ١٩١٣ والسنغالية ١٩٠٨ والتركية ١٩١٣

وقد اعلنت ترجمات متعددة للمستشرقين والمبشرين من الاوربيين وكلها ترجمات تفسيرية وليست كاملة .

ومما يذكر ايضا ان القرآن ترجم فى عهد هشام بن عبد الملك الى اللغة السريانية (لغة الحضارة فى ذلك العصر) ويوجد فى متحف لندن المجموعة الخطية التى وهبها ادوار كاريورى فى ٥٠ الف مجلد وتشمل ترجمة قديمة للقرآن منذ ٦٩٠ م وبها آيات كاملة ليست من القرآن .

الخلافا ت بين المذاهب الاسلامية

كان الخلاف بين المذاهب الاسلامية من العوامل التى استغلها الاستعمار فى معركة الغزو الثقافى والتغريب . فقد حرص على ان يثير الخلافات بين هذه الطوائف حتى يؤكد الفروق ويعمق التفرقة وقد كانت ابرز هذه الخلافات التى أثارها الاستعمار :

- بين السنة والشيعة .
- بين السنة والمتصوفة .
- بين السنة والوهابية .

بين السنة والشيعة

حرص المبشرون والمستشرقون على دراسة المذاهب المختلفة فى الاسلام فيما سوى مذهب السنة ، والاهتمام بها والتوسع فيها وكانت الشيعة من اهم هذه الابحاث . وبالرغم من ان الشيعة الاثنى عشرية والزيدية هى وحدها الموجودة الان فى العالم العربى ، فان هؤلاء الكتاب بما يحملون من روح الحقد والرغبة فى بلبلة الافكار وتصوير المذاهب بصورة مثيرة ، قد خلطوا بين هذين المذهبين المعتدلين وبين مذاهب الاغاخانية والحلول بقصد اثارة خلافات قديمة بائدة . وهم

يهدفون من نشر مثل هذه الابحاث في العالم العربي اثاره السخينة على
اخوانهم الشيعة دون أن يكون هناك ما يكشف بعض المغالطات والاطاء
المتعمدة .

وقد حرص الاستعمار في معركة الغزو الثقافي والتغريب الى
احتضان كل الفرق كالاحمدية والبابية واستغلالها في اثاره الفتنة
بين المسلمين والتشكيك في المعتقدات الدينية وتوسيع دائرة
الخلاف . وذلك رغبة في تمزيق الوحدة الفكرية والدينية كجزء من
خطة التجزئة الشاملة للمفكر والوطنية واللغة والدين .

وقد ثارت اسباب هذا الخلاف عدة مرات نتيجة لكتابات مختلفة
كتبت من جانب واحد وحجب الجانب الاخر . وقد جرت الدعوة
في هذه المناسبات الى العمل على تقريب وجهات النظر بين السنة
والشيعة في العراق وسوريا . وحرص الازهر على ان يشترك في
بحث منشأ الخلاف والطرق العلمية لازالته . وكتب محمد رضا
المظفر من علماء النجف الاشرف « الرسالة م ٣ ص ١٦١٢ » يقول
نحن نفهم من كلمة (الشيعة) اذا قلناها الامامية الاثنى عشرية
خاصة ، لانهم الاكثرية من بين فرق شتى وذوو المؤلفات والمعارك
التي يقال عنها مؤلفات الشيعة ومعارفها ، ولأنهم اليوم شيعة
العراق وسوريا وايران والامارات العربية على الخليج الفارسي والهند
واقغانستان . وهناك الزيدية في اليمن والبحرة في الهند . اما الفرق
الاخرى فقد أصبحت في خبر كان ولا يعرف لها اثر .

وقال : ان الخطا هو الصاق عقائد تلك الفرق البائدة بعامة
الشيعة (الشيعة بالمعنى المفهوم) وهذا ماثير غضب الشيعة الاحياء
من غير حاجة تدعو ولا ضرورة .

وأشار الى أن الفرق التي وصفت بالمرجئة والغالية
والمجسمة والسبكية وغيرها مما أورده الشهرستاني في كتابه الملل
والنحل قد انتهت وقال : ان كل ما عند الشيعة انها تتمسك

بعثرة الرسول - صلى الله عليه وسلم - ولكن ليس كعقيدة موالاته
فحسب . وإنما تعنى من التمسك بهم ان تأخذ بأقوالهم فى احكام
الفقه وترجع اليهم فى دين الاسلام وتدل على ان ما جاء به النبى
ورثوه عنه وعلم مكنوز لديهم وهم أمناء عليه معصومون .

وأشار الى ان هذه الخلافات قد بذرتها السياسة لاغراضها فى
زمن بعيد لئلا يضطرم بأراء افراد لانعرف عنهم
كثيرا .

وقد أشار محب الدين الخطيب الى ان الخلاف بين اهل السنة
والشيعة هو خلاف جوهرى وان أبرز هذا الخلاف هو أن الشيعة الاثنى
عشرية يدعون العصمة لأمير المؤمنين (على) واحد عشر رجلا من
سلالته وان لم يدعها (على) لنفسه او واحد من بنيه) وقال الخطيب
ان النبى وحده هو المعصوم فى هذه الامة ولا معصوم فيها غيره وهو
وحده مصدر التشريع واصحاب رسول الله هم حملة شريعته
وأمناءها الذين أدوها الى الأمناء بعدهم .

وأشار كثير من الباحثين بان الخلاف بين السنة والشيعة
ينصب على ثلاث مسائل (١) الرجعة (٢) زواج المتعة (٣) عصمة
الائمة (وان هذه جميعها مسائل فرعية فما دام الاختلاف لا ينصب
على أصول الدين ومبادئه الاساسية كالوحدانية والنبوة وفرضية
الصلاة والزكاة والصوم والحج والتصديق بالميعاد والقبلة والقرآن
فان خلاف ذلك يعد من المسائل الفرعية التى لا يضير الخلاف فيها .

بين السنة والوهابية

وقد استغل الاستعمار والغزو الثقافى والتغريب الخلاف بين
اهل السنة والوهابيين وكان هذا منذ وقت بعيد ، عندما أغرت
السلطة العثمانية محمد على بالوهابيين فى فجر دعوتهم فقامت

تلك المعارك الضخمة التى قضت على القوة الجديدة التى كانت تحاول ان تحرر الاسلام من البدع والخرافات حول العقيدة الاصلية وقد كانت هذه الدعوة تحمل فى ثناياها العمل بمفهوم الاسلام لتحرير الوطن الاسلامى من الاستبداد العثمانى والنفوذ الاستعمارى الغربى الذى كان قد استفحل فى هذه الفترة

وقد كان محمد عبده من أنصار الدعوة الى تحرير الاسلام على النحو الذى دعا اليه محمد بن عبد الوهاب . ثم ظل الصراع قائما فى الأزهر وخارجه حول المذهب التقليدى والمذهب الوهابى حتى عاد محمد مصطفى المراغى الى حمل لواء الدعوة الى علاج أمراض العالم الاسلامى وتحرير العقيدة .

الخلاف بين السنة والصوفية :

وكان الوجه الثالث للخلاف هو الخلاف بين أهل السنة والصوفية أو بين الفقه والتصوف ولقد كان للطرق الصوفية دوران واضحان لا سبيل الى انكارهما :

الدور الاول هو استغلال الاستعمار لهذه الفرق لخدمة أغراضه والدور الثانى هو ما قام به المتصوف المسلم فى قلب أفريقيا من الدعوة للاسلام ونشره على نحو عجزت عنه قوى التبشير الضخمة المؤيدة بعمال وجاه الدول المستعمرة .

وفى مصر فى ابان الاحتلال البريطانى كانت الطريقة الدمرداشية التى يرأسها عبد الرحيم الدمرداش تحظى برعاية الاستعمار . وقد حرصت الصحف الدائرة فى فلك التغريب أن تدعو لها وتحميها وتصورها بصورة العمل النافع .

وفى السودان وفى المغرب كانت بعض الطرق الصوفية أداة من أدواته وقد قام عبد الحميد بن باديس فى الجزائر ومحمد عبده

وغيرهم من أهل الفهم الصحيح للإسلام الى مقاومة هذا التيار
الخاضع للاستعمار .

وقد صور محمد عبده الطرق الصوفية بأنها : هذه الفئات
التي تتكون من خليط من الناس جمعتهم وحدة الفرار من الدنيا
وحب الكسل والابتعاد عن أى عمل يعود على الانسانية بالنفع .
وهم اما فاشل عاجزت نفسه عن السير فى طريق الحياة والاخذ
بالاسباب والمسببات . واما مسخ مشوه منبوذ فى المجتمع
واما طريد من طرداء العدالة أراد أن يتستر وراء هذا المظهر
الخادع حتى يفلت من القصاص . وأما ابله قد القى فى روعه انه
حبيب الله وصفيه وقد وجد لهؤلاء أنصار ومحبدون يؤيدونها
وينشرونها بين الجماهير فيخدرونهم بمخدرهم السام ، وهم
يلقون فى روع الناس أن الحياة الدنيا دار فناء وياخذون فى
ذمها وتنفير الناس من العمل السليم ومما يسمع عنهم قول العامة
ان الرزق ليس بالشطارة وان المجتهد قد لا يكون له نصيب من
الحياة وان الخامل قد يصيبه المجد فيها وان الدنيا دار فناء
والزهد خير من التمسك بها ..

ومما يذكر فى هذا الصدد ان الاستعمار قد افاد من جموع
الصوفية فى رسم صورة مزرية للشعوب التي احتلها ، وقد نشرت
الصحف ١٨-٤-٣١ ان احتفالا فى تكية المولوية بالحلمية
الجديدة قد حضره الاجانب من فرنسيين وأمريكان وألمان وانجليز
وثلاثة وزراء مفوضين . وقالت أن الدراويش قاموا وانتظموا فى
حفلة الذكر المستديرة وأخذوا يذكرون الله . وكلما احتدم
الموسيقيون فى عزف الأناشيد رأيت الدراويش قد امتدوا فى اللف
والدوران على نحو بديع .

وقد كانت تنقل هذه الصورة الى أوربا على أنها هي (صورة
الإسلام) وقد ظهرت فى خلال فترة سيطرة الاستعمار على العالم

العربى عديد من الطرق التى لم يكن لها هدف سوى خلق روح
القدرية والنكوص عن الجهاد ومخالفة مفاهيم الاسلام فى الحرية
والجهاد ، اما السنوسية والمهدوية فقد آمنت بمفاهيم الاسلام
وقامت دعوتهما على أساس تحرير الوطن من الاستبداد العثمانى
ومقاومة النفوذ الاجنبى و جهاد المهدوية ضد الانجليز وجهاد
السنوسية ضد ايطاليا معروف .

وقد صور « أحمد توفيق المدنى » ما تطورت اليه الزوايا
الصوفية فى الجزائر بعد الاحتلال الفرنسى (ك - الجزائر -
١٩٤١) حيث « انقلبت الزوايا بعد مؤسسيها الأولين الى معاهد
خرافات وأباطيل تستثمر غفلة العامة وبلههم فتتال منهم مال
السحت الذى يدفعونه بصفة نذور وينفقه رجال الزاوية على
ملاذهم وملاهيهم ومنكراتهم ، وآل امر الكثير من هذه الزوايا
والطرق الى أحداث وثنية فى الاسلام وأصبح شيخ الطريقة يتصف
بأوصاف (الربوبية) فهو الذى يعطى ويمنع ويقبض ويبسط ،
وتطور الأمر الى اقامة حفلات مؤلفة فى مواسم معينة بقصد جلب
السواحين ، يقومون بدور المهرجين فى الملاعب . والاوربيون
يعتقدون أن ذلك هو عين الاسلام . هذه المنكرات الدنسة جعلت
المتنورين ينفرون من الاسلام وينبذونه ولذلك فقد قامت فى
الجزائر حركة اصلاحية جسيمة ضد هذه المنكرات على رأسها
« الطيب العقبى » الذى كرس حياته وكتابات له لدحض مفتريات
المفترين » .

وأشار « علال الفاسى » فى كتابه (المغرب العربى) عن دور
الطرق الصوفية فى مراکش قال « ان الدعاية الفرنسية جندت
فى الشمال الافريقى قسما كبيرا من مشايخ الطرق الصوفية
الذين اعتادوا أن يعملوا لمصلحة رجال الحكم أو الذين خلقتهم
الادارة الفرنسية لتسخيرهم فى اغراضها فاشتغل محمود التيجانى

فى الجزائر وعبد الحى الكنانى فى المغرب وابن عزوز فى تونس
دعاة متحمسين للسياسة الفرنسية .

وقال : ان الطرق الصوفية كان لها أثر كبير فى المغرب العربى
ولكن تدهور الامل وتغلغل الفوضى الاجتماعية فى معظم القبائل
قلب هذه الطرق الى منظمات يشرف عليها فى الغالب انتفاعيون
نصبوا أنفسهم ليكونوا الوساطة الفعالة بين الحكومات المحلية
وبين الشعب ، فكانت السلطة لا تستطيع حفظ الامن ولا جنى
الضرائب ولا تعبئة الجيوش الا عن طريق هؤلاء الذين يدعون
انهم يشقون عليها من بركة نفوذهم ما يسهل عليها تحقيق
اغراضهم ، وقد سار هؤلاء المشايخ يتجولون فى القبائل والمدن
يبشرون بسقوط الالمان وبشاعة حكم الاتراك وينوّهون بقيمة
العمل العظيم الذى تقوم به فرنسا وانجلترا فى الشرق العربى .

ومما ذكره علال الفاسى أن فرنسا اتجهت الى انشاء خلافة
اسلامية فى افريقيا الاسلامية تحت حكم سلطان فرنسا .

ومما يتصل بهذا أن المسلمين الذين تيقظوا الى خطر هذه الفرق
على حركة التحرر قد فطنوا أيضا الى مفاهيم الاسلام الحقبة التى
تحرفها الطرق الصوفية على النحو الذى صوره الشيخ محمد
عبد من الدعوة الى التواكل والقدرية وتنفيذ الناس من العمل ،
وتحت هذه العناوين يمكن دعوة الناس الى قبول الاستعمار
والرضى بالحاكم المستبد وقبول الغزو الاجنبى . وهذا ما يختلف
اختلافا بينا مع ما دعا اليه الاسلام من الجهاد ومقاومة الغاصب
واليقظة والسعى فى الارض واقتحام مجاهل العلم وكشف قوى
الطبيعة والعمل المتصل .

ولاشك أن الطرق الصوفية فى مذاهبها هذه تختلف اختلافا
واضحا عن مذهب (التصوف العقلى أو الجسدى الذى دعا الى
رياضة النفس على قمع الشهوات ورفض الدنيا . فان هذا المذهب

من شأنه أن يدفع المسلم الى الجهاد فى سبيل الله معظومة نفسه
عن كل لذة أو متعة تصرفه عن هذا الجهاد . مؤمنا بالاستشهاد
فى سبيل الحق الذى يؤمن به حيث يرى الدنيا لا تغريه وهذا
هو الفهم الصوفى الذى فهمه المجاهدون من المسلمين فى الصدر
الاول . أما الزهد بمعنى الانصراف من الدنيا فهو ليس مذهباً
فى الاسلام .

وقد حرص دعاة التغريب من المبشرين والمستشرقين وأعدائهم
من كتاب الغرب الى البحث فى الصوفية واثارة مذاهبها ودعاواها
والحديث عن المتطرفين من دعائها امثال : السهروردي وابن
عربي والحلاج وعبد القادر الجيلاني وهم فى ذلك انما يهدفون
الى بلبلة الفكر العربى واثارة مذاهب الحادية ومعقدة يقصدون
من ورائها تصوير الاسلام بصورة غير صورته البسيطة السهلة ،
ومن ذلك مذهب الحلول ووحدانية الوجود و (الشريعة والحقيقة)
وغير ذلك من مذاهب كلامية لم تكن أصلاً من الاسلام وانما
أدخلت عليه من الفلسفات المسيحية والهندية واليونانية .

دعوة الاجتهاد :

حمل الفكر العربى المعاصر لواء الدعوة الى فتح باب الاجتهاد
والعودة بالدين الى منابعه الاولى كخطة لمقاومة حملات التغريب
والغزو الثقافى وكوسيلة لاشاعة اليقظة والتحرر من قيود التقليد
التي كانت عاملاً أساسياً فى تجميد الفكر خلال حكم العثمانيين .

وكان محمد بن عبد الوهاب أول من حمل هذا اللواء متأثراً
بدعوة أحمد بن حنبل وابن تيمية غير أن الوهابية لم تستطع أن
تحرز المدى الواسع الكفيل باندفاعها ثم جاءت دعوات من بعد
حملت هذا اللواء . وانطلقت به الى أقاليمها . كالمهدوية والسنوسية
وغيرها . غير أن جمال الدين الافغانى كان أقوى من حمل هذا

اللواء الى العالم الاسلامى كله فى كلماته القليلة وكتابات النادرة
وفى مصر حمل اللواء من بعده محمد عبده ورشيد رضا والمراغى
وتأثرت خطاه الشام فظهر بها الكواكبى والمغربى والعراقى فظهر
بها آل الالوسى وفى المغرب برزت الدعوة الى السلفية واحتلت
حيزا كبيرا من الفكر العربى كسلاح قوى لمقاومة الاستعمار
والتغريب والغزو الثقافى والتبعية الثقافية للغرب .

رأى الشيخ محمد عبده :

ويرى الكثيرون أن محمد عبده هو عماد التجديد والاصلاح
الدينى فى العصر الحديث (محمود الشرقاوى - ١٥-١-٣٦ -
البلاغ) فقد وضع فى كتابه (الاسلام والنصرانية) القاعدة
حيث قال :

« عند النظر فى أى دين للحكم له أو عليه فى قضية من
القضايا يجب أن يؤخذ ممحضا مما عرض عليه من بعض أهله أو
محدثاتهم التى ربما تكون قد جاءتهم من دين آخر . فاذا أريد أن
يحتج بقول أو عمل لاتباع ذلك الدين فى بيان بعض أصوله
فليؤخذ فى ذلك بقول أو عمل أقرب الى منشأ الدين . ومن نلقوه
على سذاجته من صاحب الدين نفسه . »

ومن اراء محمد عبده فى تعليم المرأة وتعدد الزوجات يقول
« ان الاسلام يقرر المساواة بين الرجل والمرأة فى جميع الامور
الجوهرية . وان الاسلام لا تتجلى محاسنه باعتباره دين انزل
للمناس كافة فى شئ أكثر مما يتجلى فى تكريمه المرأة والاعتراف
بما لها من مقام . »

ويرى ان تجويز تعدد الزوجات فى الاسلام كان لضرورات
اجتماعية جعلته محتبوما على أن هذه الاباحة قد شرطت لها

شروط ، وأحيطت بتحفظات هي مستحيلة استحالة عملية . وإن
الزواج بواحدة هو الأصل وهو المثل الأعلى في الحياة الزوجية .
ويرى محمد عبده في مجال الاجتهاد أن للامام أن يمنع المباح
الذي تترتب عليه مفسدة مادامت المفسدة قائمة به والمصلحة
بخلافه . وعند محمود الشرقاوى أى الشيخ محمد عبده يرى أن
الشرعية ليست شيئاً جامداً لا يتحول بتحول الزمن والمصلحة بل
هي مطاوعة لذلك دائرة على منفعة الناس .

رأى رشيد رضا :

ويرى رشيد رضا (٢٠ فبراير ١٩٣٦ - البلاغ) لتجديد
قواعد الشريعة بعد الرجوع الى بساطتها الاولى . ان يقوم علماء
المسلمين بتأليف كتاب جامع لكل العقائد والمبادئ الادبية التي
أجمع عليها المسلمون في مختلف الفرق . وأن ينقل هذا الكتاب
الذي يعد دستوراً الى كل اللغات التي ينطقون بها على أن يكون على
قدر كبير من المسامحة والتوسع .

أما ما وقع فيه الخلاف في صدر الاسلام فهو غير واجب .
ويترك فيه الامر الى التخيير . وكذلك مسائل الفروع يترك لكل
مسلم أن يتبع فيها المذهب الذي يختاره

وعنده أن توحيد العقائد بهذا الدستور سيؤدي بمرور الزمن
الى تخفيف حدة التعصب لمذهب معين .

ويرى انه بالنسبة لاحكام المعاملات والامور الخاصة بالحياة
الدنيا ومعايش الناس ينبغي أن تكون مستقلة عن الدين ولا تعد
جزءاً من قانون مقدس لا يتبدل الى الابد ولا يتغير . بل يحكم
فيها العرف على اختلاف الزمان والمكان .

ويرى أن طبيعة الاستمرار والجمود التي أوجدتها كتب المذاهب الأربعة المشهورة وأوجدتها أقفال باب الاجتهاد كان لها دخل كبير في تأخر البلاد الإسلامية وعدول بعض الدول الإسلامية عن اتباع أحكام الشريعة .

ويرى مصطفى المراغى أن الموجة التي طغت على الشرق من الغرب ضد التدين أخذت تضعف وأخذ الشرق يدرك ضرر التقليد فى كل شيء ويدرك أن قوة الغرب وتفوقه لم يكن بهذه المسائل التافهة من التبرج والاناقة واختلاط الجنسين بل قامت على العلم والخلق ومجد الوطن .

موقف التغريب ازاء الفقه والتشريع الإسلامى

كانت معركة الإسلام الكبرى مع التغريب هى مواجهة الادعاء بأن الإسلام دين عبادة وصلوات وطرق صوفية وان القرآن كتاب يقرأ للبركة ، وان الإسلام بذلك يجب فصله عن الدولة .

وقد حاول التغريب ودعاته تأكيد هذه النظرية الخاطئة فى كل بلاد العالم العربى والإسلامى بواسطة أجهزتهم المختلفة من صحافة وكتابة وجامعات ومحاضرات وأبحاث وذلك حتى يتم القضاء على الإسلام كنظام ومنهج اجتماعى وسياسى كامل .

والواقع كما يقول (نبيه أمين يونس) وهو أحد المفكرين العرب المتصلين بدوائر الغرب (ك : هذا العالم العربى - ص ٤٦) أن الإسلام نظام تام شامل لمطالبات الدنيا والآخرة ، وهو نظام اجتماعى يحدد شكل الأسرة وعلاقة الأفراد بعضهم ببعض ،

وسلوك الافراد فى معاملاتهم الدنيوية ، وهو نظام سياسى وتشريع مدنى يعين شكل الدولة وعلاقة الحاكم بالمحكوم وهو الى ما تقدم علم ومدنية وتاريخ « وانه لهذا كان بعيد الاثر » فى توحيد العرب والمسلمين عاطفيا وربطهم بوحدة المثل الاعلى وجعل النظم الاجتماعية والفكر متشابهة » .

وقد اشار جب الى ان « التغريب » استطاع ان ينزل الاسلام من فوق عرشه فى انظمة الحكم والاجتماع والاقتصاد والتربية والتعليم .

وكان اهم ما دعا اليه الغربيون فصل العلم عن الدين وفصل الدين عن الدولة .

وفى مجال الفقه الاسلامى اسقط الاستعمار النظم الاسلامية والقوانين القائمة وفرض بدلا منها الانظمة والقوانين الاوروبية المستمدة من الشريعة اليونانية والمسيحية دون النظر الى وجه الالتقاء او الخلاف او الحاجة .

واثار فى ظل ذلك حملة ضخمة على الفقه والتشريع الاسلامى متهما اياهما بالقصور وعدم القدرة على الاستجابة والتطور . غير ان هذه الحملة قد تحطمت على صخرة عاتية ، فقد عقدت مؤتمرات قانونية عالمية اشادت بالشريعة الاسلامية ، كان أبرزها مؤتمر القانون المقارن فى لاهى عام ١٩٣٢ الذى أكد مركز الشريعة الاسلامية كمصدر للتشريع بعد البيانات والابحاث التى قدمها الدكتور عبد الرازق السنهورى وعلى بدوى ومسيو لامبير وكان من نتيجة هذه الأبحاث أن قرر المؤتمر بالاجماع أن « الشريعة الاسلامية مصدر من مصادر القانون المقارن » . وهى حية صالحة للتطور ومسايرة المدنية الحديثة وأنها جديرة بأن تشكل مصدرا ممتازا من مصادر القانون المقارن وأكد استقلالها عن التشريع الرومانى » .

وقد أيد كثير من الباحثين الأوربيين المنصفين قوة الشريعة الإسلامية وقدرتها على مواجهة مطالب العصر . وكان المسيو ادوار لمبير ناظر مدرسة الحقوق الخديوية في القاهرة عام ١٩٠٦ كان قد أعد مؤلفا عن القانون المقارن ضمنه فصلا عن الشريعة الإسلامية فلما جاء مصر اتصل بأعلام الشريعة وتاريخها وأصول تطبيقها ، وقد كان يظن أن القانون الروماني أثر تأثيرا كبيرا في الشريعة الإسلامية ولكن تبين له بعد ذلك أن هذه الشريعة مستقلة بذاتها ، وأعلن أن في الشريعة الإسلامية كنزا لا يفنى ومنبعها لا ينضب ، وأنه خير ما يلجأ اليه المصريون في العصر الحاضر في البحوث العلمية حتى يعيدوا لمصر وبلاد العرب هذا المجد العلمي .

وقال انه استبان له أن ليس للقانون الروماني أى أثر في الشريعة الإسلامية وانها شريعة مستقلة .

وأعلن ليفى أولمان أستاذ الحقوق بجامعة باريس : اعتبار الشريعة الإسلامية في المعاملات مصدرا للقانون المصرى .

وقال الدكتور ايزيكو انساياتو : ان الشريعة الإسلامية تفوق في كثير من بحوثها الشرائع الاوربية بل هي التى تعطى للعالم أرسخ الشرائع ثباتا .

وقال فارس الخورى أن محمدا أعظم عظماء العالم ، والدين الذى جاء به أوفى الأديان وأتمها وأكملها ، وان محمدا أودع شريعته المطهرة أربعة آلاف مسألة علمية واجتماعية وتشريعية .

ولم يستطع علماء القانون المنصفون الا الاعتراف بفضل الذى دعا الناس اليها باسم الله ولأنها متفقة مع العلم مطابقة لأرقى النظم والحقائق العلمية .

وقال ستيلانا فى بعض مؤلفاته : ان فى الفقه الإسلامى ما يكفى المسلمين فى تشريعهم المدنى ان لم تقل أن فيه ما يكفى الانسانية كلها .

وقال سليم باز المسيحي اللبناني (شارح مجلة أحكام العدلية) اعتقد بكل اطمئنان بأن في الفقه الاسلامي كل حاجة البشر من عقود ومعاملات وأقضية والتزامات وأن في مختلف خزائن البلاد الاسلامية ودور الكتب الأوروبية في هولندا وروما وبرلين وباريس والمتحف البريطاني والمكتبة البابوية في قصر الفاتيكان ، ألوف الكتب الفقهية الاسلامية التي هي جهود فحول العلماء ، وهي الشاهد الأكبر على أنه لا يوجد معنى من معاني الاحكام المنشود فيها العدل ولا حاجة من حاجات البشر في التشريع الا تقدم لفقيه مسلم قول فيه .

وقال الدكتور محمود فتحي : ان نظرية « الاعتساف » التي ابتكرها القانون المدني الألماني عام ١٧٨٧ قد تكلم فيها التشريع الاسلامي طويلا ابتداء من القرن الثامن الميلادي .

وقال الدكتور « شيرل » عميد كلية الحقوق بجامعة فيينا في مؤتمر الحقوقيين : ان البشرية لتفخر بانتساب رجل كمحمد اليها اذ أنه رغم اميته استطاع قبل بضعة عشرة قرنا أن يأتي بتشريع سنكون نحن الأوروبيين أسعد ما نكون لو وصلنا الى قمته بعد ألفى سنة .

وقال « هولكم » استاذ الفلسفة بجامعة هرفارد : الشريعة الاسلامية تحتوى على جميع المبادئ اللازمة للنهوض .

وقال الدكتور عبد الرازق السنهوري : ان المقارنة بين الشريعة الاسلامية وبين شرائع الغرب كفيلا بأن يظهر من ذخائر الشريعة الاسلامية في المبادئ والنظريات ما لا يقل في رقي الصياغة واحكام الصنعة عن أحدث المبادئ والنظريات وأكثرها تقدما في العالم العربي ..

وقال على بلوى : ليست مظاهر استقلال الفقه الاسلامى وتفوقه محصورة فى القواعد المدنية والأحوال الشخصية ولكنها تبينت كذلك فى عدة مواضع من التشريع الجنائى الاسلامى .

ويقول الدكتور صبحى محمصانى : فى كتاب العرب والحضارة الحديثة ، : التشريع الاسلامى كان وظل قادرا على التجاوب مع المجتمع . وقد فتح التشريع الاسلامى أبوابا للحفاظ على الغاية الاجتماعية والاقتصاد والاجتماع . وقاعدة تغير الأحكام بتغير الأزمان مسالك لصرف التشريع الى غايته الأساسية وهى تحقيق مصلحة المجتمع الانسانى . وقال : ان التشريع الاسلامى كان قابلا للتطور والنمو وملاءمة الامكنة والأزمنة المختلفة التى مرت عليه .

وأشار « حسن جلال » الى أنه فى عام ١٩٥١ عقدت شعبة الحقوق الشرقية من المجمع الدولى للقانون المقارن مؤتمرا للبحث فى الفقه الاسلامى فى كلية الحقوق بجامعة باريس تحت اسم اسبوع الفقه الاسلامى ودعت اليه عددا من المستشرقين وأساتذة القانون فى الدول العربية وجرت أبحاث حول الفقه الاسلامى ، وأشار الى أن نقيا سابقا للمحاميين فى باريس قال :

« لست أدرى كيف أوفق بين ما كان يحكى لنا عن جمود الفقه الاسلامى وعدم صلاحه أساسا تشريعا يفى بحاجات المجتمع العصرى ذات قيمة أكيدة لا مرية فى نفعها ، وان اختلاف المذاهب فى هذا الجهاز التشريعى الضخم ينطوى على ثروة من الآراء الفقهية وعلى مجموعة من الأصول الفنية البديعة التى تتيح لهذا الفقه أن يستجيب بمرونته لجميع مطالب الحياة الحديثة . »

الرد على ادعاءات المستشرقين :

ور: كثير من الكتاب المنصفين على ادعاءات المستشرقين فقال **الدكتور صبحى محمصانى « كـ العرب والحضارة الحديثة » :** ان

ما زعمه بعض المستشرقين من أن الشريعة الإسلامية مقضى عليها بالخمول قول فاسد . وقال ان أبرز ملامح الشريعة الإسلامية :

- ١ - ان الاجتهاد واجب فيها والتقليد الإعمى محرم .
- ٢ - ان الشريعة الإسلامية ليست مذهبا واحدا ، بل مجموع المذاهب . .

٣ - ان توسيع الفقهاء في اولىة التشريع ومصادرة الاخـد بمبادئ الانصاف المطلق بطريق الاستحسان والاستصلاح : كل ذلك كان له أثر فى جعل الشريعة الإسلامية من أعدل الشرائع وأقربها الى المثل الاجتماعية العيا .

- ٤ - ان قاعدة تغيير الأحكام تطبق فى جميع المسائل التى لا يوجد فيها نص فى القرآن والسنة .

ودعا « جستنيان » ٧-١١-١٩٣٦ (الأهرام) الى تجميع أحكام الشريعة الإسلامية المتعلقة بالمعاملات فى « باندكت » اسلامى . وقال انه خير معوان للاسترشاد به فى اعداد موسوعة اسلامية عن المعاملات . .

الدكتور السنهورى :

وقد خطا الدكتور عبد الرازق السنهورى خطوة واسعة فى سبيل التقنين الإسلامى المدنى عندما كان عميدا لكلية الحقوق فى بغداد فى وضع مشروع قانون مدنى جديد للعراق وأن المشروع وضع على أساس أحكام الفقه الإسلامى فى مذاهبه المتعددة (مطعما) بأحكام القوانين الأوربية .

وفى عام ١٩٣٨ بدأ الدكتور السنهورى ، والمسيو لامبير ، فى وضع المشروع التجهيزى للقانون المدنى المصرى ، متخذاً من الشريعة الإسلامية أساسا وصفه « عبد النعم الصدة » بأنه تراث

قانوني طالما تنكرنا له واصدرنا فيه احكاما بالباطل ، وقال : ان مصر
رزئت بقوانين اقتبس معظمها من قوانين اجنبية وضعت لاناس
يختلفون عنا أشد الاختلاف فى العادات والأخلاق والبيئة ، واذا علمنا
ان واضع قانوننا كان اجنبيا أدى مهمته فى أشهر معدودة ولم يكلف
نفسه فى أثنائها سوى القيام بنقل الأحكام التشريعية الأجنبية
دون تعديل أو تحويل ، أمكننا ان ندرج الى أى حد كان التعديل
الزوم ، ..

**وقال الدكتور السنهورى فى مقدمة كتابه « نظرية العقد ، عن
فكرته فى تمصير الفقه فقال : « علينا أولا أن نحصر الفقه فنجعله
فقها مصريا خالصا ، نرى فيه طابع قوميتنا ، ونمس أثر عقليتنا
فقهنا حتى الآن لا يزال هو أيضا يحتله الأجنبى والأجنبى هنا
فرنسى ، وهو احتلال آخر ليس بأخف وطأة ولا بأقل عننا من أى
احتلال آخر .. ان لدينا ثروة تشريعية يفرض علينا واجبا أن
نستغلها وأن نحسن استغلالها هى « الأحكام الشرعية الإسلامية »
منها ما يعد مبادئ عامة أساسية هى بمثابة قواعد للنظام العام
بحيث تسمو فوق كل تغيير أو تبديل ويتعين احترامها فى كل
زمان ومكان » .**

**ويقول الدكتور السنهورى فى كتابه نظرية العقد : « الشريعة
الإسلامية شريعة الشرق ووجهه الهام وعصارة أذهان مفكره ،
نبئت فى صحرائه وترعرعت فى سهوله ووديانه فهى قبس من روح
الشرق ، ومشكاة من نور الاسلام يلتقى عندها الشرق والاسلام
فيضىء ذلك بنور هذا ، ويسرى هذا فى روح ذلك حتى ليمتزجا
ويصيرا شيئا واحدا ، هذه الشريعة الإسلامية لو وطئت أكنافها ،
وعبدت سبيلها لكان لنا من هذا التراث الجليل ما ينفع روح
الاستقلال فى فقها وفى قضائنا ، وفى تشريعنا ، ثم انه ليشرفنا
أن نطالع العالم بهذا النور الجديد فيضىء به جانبا من جوانب الثقافة
العالمية فى القانون ..**

وقال : انها دعوة باطلة تلك التى يقول أصحابها ان الشريعة الاسلامية التى كانت صالحة بالأمس لم تعد تصلح لأن يؤخذ بها اليوم ..

وقد أوضح الدكتور محمد كامل مرسى وسيد مصطفى فى كتابيهما « أصول القوانين » والدكتور على بدوى فى كتابه « تاريخ القانون » بجلاء ان الشريعة الاسلامية صالحة لكل زمان ومكان ، وانها غير ما يتوهمه البعض من أن أحكام الشريعة الاسلامية ثابتة وغير متطورة ، وقال اننا جميعا حينما ننادى بالرجوع الى الشريعة الاسلامية لا نطلب قلبا للأوضاع ومحو لجميع الأحكام الحاضرة ، ذلك لأن جزءا كبيرا من التشريع الحالى يمكن قبوله وإقراره ، وهو لا يتنافى مع مبادئ الشريعة الاسلامية .

تجربة السنهورى :

وأشار السنهورى الى تجربته فى التقنين المدنى الاسلامى ٢٧ نوفمبر سنة ١٩٣٦ ، قال : وضعت نصب عيني عندما بدأت العمل فى وضع مشروع القانون المدنى أن اضع قانونا أوفق فيه ما بين أحكام مجلة الأحكام العدلية ، وبين الشريعة الاسلامية بوجه عام . وأحدث الأحكام المدنية المعمول بها فى البلاد الغربية . بدأت بوضع نموذج اخترته من بين التقنيات الغربية حديثها وقديمها . . . واخترت لذلك بعض التقنيات الغربية وعلى رأسها التقنين الفرنسى والتقنين المصرى والتونسى والمراكشى واللبنانى ، وأخذت من المشروع الفرنسى الايطالى التقنيات الجرمانية نموذجا يعد فى نظرى المثل الأعلى للتشريع المدنى فى العصر الحاضر . . . وبحث ما يقابله من مذهب أبى حنيفة والمذاهب الأخرى الاسلامية وهكذا قدمت للعراق مشروع عقد البيع مأخوذا من أحدث التشريعات الغربية ، ولا يكاد يختلف فى شيء من أحكام الشريعة الاسلامية .

موقف الفكر العربى من الحملة :

وقد واجه الفكر العربى المعاصر قضية التشريع الاسلامى مواجهة واضحة قوية كشف فيها عن عظمة هذا التشريع ومرونته وقدرته على مواجهة التطور والحضارة فى مختلف الأزمان والبيئات .
وقد دعا الفكر العربى الى فتح باب الاجتهاد ورفض التقليد . .
وآمن بأن « المقلدون فى كل أمة ، المنتحلون أطوار غيرها يكونون فيها منافذ وكوى لتطرق الأعداء اليها وتكون مداركهم مهابط الوساس ومخازن الدسائس » .

وظهر الاتجاه الى توحيد المذاهب الاسلامية وعدم التقليد بمذهب واحد ، على أساس الحقيقة التى تقول بأن الشريعة الاسلامية ليست مذهبا واحدا بل هى مجموع المذاهب دون تقييد .
وقد كشف عن أن الخلاف بين المذاهب لم يقم على المبادئ والتعاليم الاسلامية ، بل كان وقفا على الفروع ، وإن اختلاف المذاهب كان من أسباب مرونة الشريعة الاسلامية وتطورها . وأن بعض الأحاديث قد وضعت فى بعض عصور التاريخ الاسلامى خدمة للسياسة وانتصارا لبعض الأحزاب « الدكتور محمصانى (ك .
العرب والحضارة الحديثة) .

وكشفت الدراسات المختلفة من أن الجماعة الاسلامية اعتقدت فى العصور المتأخرة أن أبواب الاجتهاد قد أقفلت فى وجه أى تفسير مما أدى الى ركود المجتمع الاسلامى . وإن الحركة الوهابية سبقت الغزو الثقافى ، وكانت أيدانا باليقظة وفتح باب الاجتهاد . وقد اشتد هذا التيار وتعمق من بعد داعيا الى العودة الى القرآن والسنة وإعادة فتح باب الاجتهاد وإعادة تفسير قوانين الاسلام للجماعات وكشف الطبقة الجامدة التى علت وجه الفكر العربى الاسلامى ، وجرى طويع القوانين العلمانية الغربية للحياة الاسلامية . . كما فعل الدكتور عبد الرازق السنهورى فى اعداد القانون المدنى ، فقد

نصت آخر مادة في هذا القانون على أنه إذا درست قضية وثبت أنه لا يطبق عليها أى قانون وجب أن يعتمد الحكم فيها على أرحب تفسير لأى قانون إسلامى فى أحد المذاهب .

وكشفت هذه الأبحاث عن حقائق لا سبيل الى الشك فيها ، وهى أن الإسلام من حيث كونه نظاما مدنيا قد توافرت فيه مرونة تمكن المجتمع الإسلامى من التطور دون كونه أهمال قواعده الأساسية بإقراره حكم العادة والاجتماع والاجتهاد .

وأنه تشريع مرن قابل لأن يكون تشريع كل زمان ومكان وله القدرة على مسايرة حاجات المدنية الطارئة ، وأحوال المجتمع المدنية . .

وان الإسلام لم يكن عائقا للمجتمع عن التقدم . . وكانت صيحة جمال الدين الباكرك : « يجب أن تتحرر عقول الناس من كدر الخرافات وصدا الأوهام » ، وان الإسلام دين ومجتمع وسياسة واقتصاد . .

وكان هذا ردا حاسما على الحملات العنيفة التى وجهها الغرب الى الإسلام بقصد تنحيته عن مكانه فى الحياة العربية والقضاء على جوهره ومفاهيمه فى الجهاد والمقاومة والحرية من ناحية ، والقضاء على جوانبه السياسية والاقتصادية والاجتماعية بتغليب الانظمة الغربية بحسبان أنه القوة التى تقاوم الاستعمار وذلك جريا وراء تمزيق الوحدة واضعاف الجبهة بالتفرقة المذهبية والعصبية الشعبوية والحيلولة دون مبادئ الإسلام وتعاليمه وبين التطبيق والبقاء مع صلاحيتها التامة للمجتمع وقابليتها للتطور وضرورة بقائها .

وقد أشار « ويلفرد كانتول شمت » بصدد الإشارة الى محاولة بناء مجتمع إسلامى فى القرن العشرين قال :

« ان تاريخ الشرق الأدنى الحديث يدل على أن القومية المجردة ليست القاعدة الملائمة للنهوض والبناء . . وما لم يكن المثل الأعلى اسلاميا على وجه من الوحدة لن تثمر الجهود البتة .
وبذلك كله فشلت الدعوة للمتغريب في « اقضاء الاسلام عن مجال الحياة ومناهج التربية والقضاء والحكم » .

* * *

حملات على الدين

مهاجمة الدين واعتبار الاسلام سبب التخلف

تعددت حملات كتاب الغرب الذين قادوا معركة التغريب الثقافي على الدين وعلى الاسلام بالذات بادعاء انه سبب التخلف للعرب والشعوب التي اعتنقته .

وتمثل الحملة على الدين ومهاجمة الاسلام بحملة الدوق داركور بكتابه « مصر والمصريون » الذي صدر عام ١٨٩٣ جريا في نفس الطريق وان اقتصر بالكتابة على المصريين وحدهم .. وقد ضم كتابه سلسلة من المطاعن القاسية ، وكان قوامه التعصب .

وحاول مؤلف الكتاب ان يصور الاسلام في صورة الدين الخرافي العتيق .. ويصور المسلمين في صور الضعاف العجزة . ونعى على المصريين ضعف الخلق القومي وعزا تاخر الحركة الفكرية الى الاسلام . وقال انه - اى الاسلام - هو السبب الاساسى في هذا التاخر وانه لا يحض على البحث في العلوم غير الدينية وأنكر ان للعرب الاولين مدنية خاصة ، واتهمهم باحراق مكتبة الاسكندرية وادعى ان الاسلام هو الذى أمر بالحجاب .

رد قاسم أمين

وقد رد قاسم أمين على دوق داركور بكتابه « المصريون » باللغة الفرنسية ، وقال ان داركور مليء بالحق على المصريين والاسلام .. جاهل بأصول الدين وتاريخ العرب .. وان ما يوجد

فعلا مما رمى به المصريين من قصور لا يرجع الى طبيعتهم ولا الى دينهم . . وانما يرجع الى أنهم كانوا يعيشون في ظل الاستبداد الذي اوقف تقدمهم ونهضتهم .

وقال قاسم أمين : ان الاسلام سبق الثورة الفرنسية بألفى سنة أو يزيد حيث أنكر امتيازات النبلاء والثروة . ودعا الى العدالة الاجتماعية . . وان ليس في الاسلام طبقة تمثل السلطة الروحية التي كانت للكنيسة وانه أفسح المجال للكفايات وجعل للفقراء حقا معلوما في أموال الأغنياء . . وان النظام الاسلامي يؤكد الاخاء والمساواة . . وان ضعف هذا النظام انما حدث نتيجة لاضطراب المسلمين وقيام أمراء طغاة يحكمون العالم الاسلامي مما أدى الى شيوع الظلم والقسوة .

وان الاسلام ليس هو الذي أنزل المرأة هذا المنزل . . اذ أنه قد منحها من الحقوق ما لم تكن المرأة الفرنسية قد منحتة في اواخر القرن التاسع عشر . . فالمرأة المسلمة اذا تزوجت كان من حقها ان تحتفظ بحقوقها المدنية فلها الكفاءة شرعا على ان تتصرف في أمورها . .

ونقد قاسم أمين حال المرأة في أوروبا وقال : ان نظام تعدد الزوجات والطلاق نظام أرقى وأنقى من نظام الخلائل والتعدد غير الشرعي السائد في فرنسا وأوروبا . . هذا النظام الذي يطبع الأطفال بطابع الجريمة . . وان الاسلام قد احتاط لهذه الأخطار على أن الأصل أن يكون للرجل زوجة واحدة .

واورد قاسم أمين احصاء عن البغاء في فرنسا ودلل على أن ربع المواليد فيها غير شرعيين . وان ١٥٠ ألفا منهم قتلوا وهم يخرجون من بطون أمهاتهم .

وقال قاسم أمين : ان المصريين يؤمنون بأن الفضيلة مثل معنى أعلى يضحى في سبيله بلذات الدنيا .

وان الاسلام لم يمنع المصريين من دراسة الرياضة والجغرافيا والكيمياء والطبيعة والفلك .. وليس هو الذى أسلمهم لجماعة الطفلة المستبدين .. وان الاسلام لم يعترض تطور العقل الانسانى ولا تقدم العلوم ولا الآداب .. ولم يحل دون اكتشاف الحقائق العلمية .. وان ما تسرب الى الدين من أوهام وخرافات مما يراه بعض السائحين ليس من أصول الدين ..

وخلص قاسم أمين الى أن الاستعمار هو الذى حال بين بلادنا وبين التقدم وان القناصل الاوروبيين كانوا يكونون حكومات داخل الدولة تحمى المجرمين والصوص وسفاكى الدماء من رعاياهم .. وان الغرب فرض تجارته علينا .. وان رعاياهم كانوا مثلاً للفساد والتسلط .. وانهم نعموا بخيرات البلاد دون أن يدفعوا مقابلها . وأعلن سخطه على المحاكم المختلطة والامتيازات الأجنبية . وقال ان حكام مصر حاولوا السير بمصر لولا أن أوروبا خلقت لهم العشرات فأضحت البلاد مزرعة للغريب الأجنبى .. وانه على الرغم من أن مصر تقابلهم بالاحترام فانهم لم يجدوا سبيلاً للاساءة الا سلوكه (ترجمة أحمد خاكي : الثقافة - ١٩-٥-١٩٤٢ ، ٠

٢ - حملة هانوتو

مهاجمة الاسلام والمخاضة بينه وبين المسيحية

وكانت حملة « هانوتو » واحدة من هذه الحملات التى شنّها الغرب على الاسلام ، ومحاولة اثارة الشبهات حوله والسخرية منه وقد حاول هانوتو (وزير خارجية فرنسا) أن يلصق بالاسلام كل عيب .. متهما اياه بالتعصب والتخلف .. وحاول أن يرفع من شأن المسيحية على حساب الغرض من قدر الاسلام حيث قال :

« ان الاسلام رفع حق الربوبية ، وجعل الانسان فى حضيض الضعف ودرك الوهن ، بينما المسيحية ترفع من شأن الانسان وتخوله حق القربى من الذات الالهية .. وقال هانوتو ان نتيجة

الاتجاه الأول هو تحريض الانسان على اغفال شئون نفسه وبث القنوط في قلبه وتثبيط همته .

وقال : أن « المسيحية » هي الوارثة لآثار الآريين ، وهي منقطعة الصلة بالمذاهب السامية ، وإن كانت مشتقة منها . أما الاسلام فهو متأثر بالمذهب السامي ، ولذلك فهو ينزل بالانسان الى أسفل الدرك ويرفع الاله عنه في علاء لا نهاية له .

وأعاد قول كاتب آخر هو « كيمون » الذي يعتقد أن الاسلام جذام فشا بين الناس ، وأخذ يفتك بهم فتكا ذريعا . ويقول كيمون : بل هو مرض مريع ، وشلل عام ، وجنون ذهولي يبعث الانسان على الخمود والكسل ، ويرى أن المسلمين وحوش ضارية ، ويعتقد أن الواجب ابادة خمسهم ، والحكم على الباقين بالأشغال الشاقة ، وتدمير الكعبة ، ووضع ضريح « محمد » في متحف اللوفر .

وأشار الى أن الاسلام دين وسياسة ، وإن شعور المسلمين مبهم من حيث الجامعة السياسية . . . والرابطة المدنية أو الوطنية . فالوطن عندهم في الاسلام ، وهم يقولون ان السلطة مستمدة من الالهية فلا يجوز أن يتولاها الا المسلمون .

ويقول هانوتو : ان الاسلام عقبة في سبيل العلم والحضارة .

رد محمد عبده :

ورد محمد عبده على هانوتو متهما اياه بتحريك نيران العداوة في الفرنسيين واثارتهم على حرب المسلمين . . . وقال ان أصل التمدن الآري هو الهند وإن الاسلام هو الذي حمل الى أوربا مدنيات العالم من فارس ومصر واليونان بعد أن صفاها وهذبها . . . وذلك عن طريق الأندلس . . . وقال انه لا صلة بين الدين المسيحي والمدنية الحاضرة . . . فالانجيل يأمر أتباعه بالانسلاخ من الدنيا والزهادة فيها . . . ويقص عليهم أن دخول الجمل في سم الخياط أيسر من دخول الغنى في ملكوت السماوات . . . فهل تقوم المدنية الأوروبية على هذا الأساس .

ثم قال : ان الفينيقيين - وهم ساميون - هم أساتذة العالم في الصنائه والتجارة ، بل والقراءة والكتابة ، ولا زالت الامم يأخذ بعضها من بعض في المدنية لا فرق بين آرى وسام .

ودفع « محمد عبده » عن الاسلام تهمة الاتكال على القدر والجبرية ، وبين أن النبي وأصحابه جاهدوا في سبيل نشر الدعوة ولم يكتفوا بالتسليم للقدر في اتمامها قائلين ان الذى كفل لهم النصر يكفيهم التعب . . وان الآريين الذين دخلوا في الاسلام من فرس ورومان هم الذين أفسدوا العقائد الاسلامية فأدخلوا فيها ما ليس منها . .

وقال : ان ربط هانوتو بين المسيحية وبين الديانة اليونانية باطل . . وان نظرية التشبيه لم تظهر في المسيحية الا بعد قرون من نشأتها . . وقال ان من المسيحيين الآن من يعتقد ان المسيح لم يكن الا نبيا مختارا بعثه الله لخلاص البشر . . أما الاسلام فقد دعا الى التوحيد ، وبعبقيدة التوحيد فتح المسلمون الدنيا وجالوا في علوم السماوات والأرض فنبغوا في مختلف العلوم . . وانما فسدوا وتأخروا حين فسدت عقولهم ودخل فيها ما ليس منها « أ. هـ .

ومما يذكر أن عصر التغريب الذى امتد في مصر خلال هذه الفترة (١٩٢٠ - ١٩٤٠) قد فرض أن يختار « هانوتو » هذا نفسه ليكتب تاريخ مصر في مقابل ثمانية آلاف جنيه ، والعجيب أنه كتب تاريخا مشوها نقدته الصحف وعارضه الكتاب ، فقد زعم أن مصر لم تستغل في حياتها الا فترات قصيرة جدا ، وأجابت مجلة النهضة الفكرية (١٨ يناير ١٩٣٢) على ذلك : بأن مصر كانت امبراطورية كبيرة يوم كانت أوربا تتخذ من الكهوف والمغاور مساكن ومن جلود الحيوانات اطعمة . . ولو لم يتصل اليونان بمصر لظلت فرنسا وانجلترا في العصر الحجري الى القرن العشرين ، وتساءلت المجلة : هل كانت مصر مستمرة في عهد البطالسة أيام كانت فرنسا مسكونة بصنف من البشر همجي متوحش .

٣ - حملة كرومر

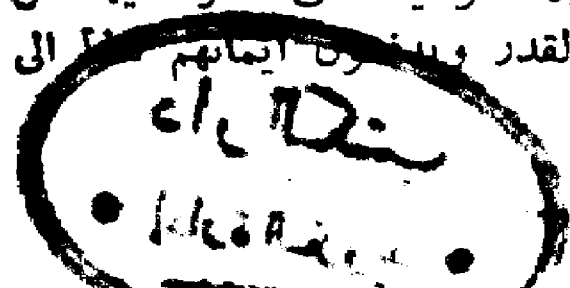
على الاسلام والعرب ومصر والشرق

ويمثل كرومر بحملاته المتوالية التي أوردها كتابيه « مصر الحديثة » و « الخديو عباس » وتقاريره السنوية ، صورة الحملة الجماعية على كل مقومات شخصيتنا ومعالمها وتراثنا ووحدتنا وثقافتنا وماضينا .

يقول : ان الاسلام ناجح كعقيدة ودين : ولكنه قاشل كنظام اجتماعي قد وضعت قوانينه لتناسب الجزيرة العربية في القرن السابع الميلادي . . ولكنه مع ذلك أبدى لا يسمح بالمرونة الكافية لمواجهة المجتمع الانساني . . وان الاسلام يحرم المرأة من كل حقوقها ويعتبرها أخط من الرجل وانه يبيع الرق . . وانه دين متعصب متطرف يبيع لاتباعه أن يتخذوا المخالفين لهم في العقيدة أسرى حرب ورقيقا . . ويجعل من أتباعه جماعة من أنصاف الهمج المحبين للحروب والذين لا تتسع صدورهم لأي تسامح ، فهم لا يفهمون ان الخلاف في الرأي ليس موجبا للكراهية والحقد .

وقال : ان الاسلام دين مناف للتجديد ، ولم يكن صالحا الا للزمن والمحيط الذي وجد فيهما . . وان المسلمين لا يمكن أن يرقوا في سلم الحضارة والتمدن الا بعد أن يتركوا دينهم . . وينبذوا القرآن وأوامره ظهريا لأنه يأمرهم بالخمول والتعصب ويثبت فيهم روح البعض للأغيار والشقاق ، وحب الانتقام وان الاسلام على الجملة هو العقلية الكؤود في سبيل رقي الامة الاسلامية .

وقال : ان الشرقيين أسرع الناس الى تصديق الشائعات ، وهم يتملقون من فوقهم بنفس القدر الذي ينتظرون فيه الملق ممن هم دونهم . . وهم لا يكثرثون للمستقبل ، ولا يتبصرون في العواقب ، ولا يرون شيئا لمن يتركونهم من خلفهم وهم يدسون في الخفاء ، ولا يعملون في الضوء نتيجة للعصور المتوالية التي عانوا فيها من الاضطهاد ، وهم يؤمنون بالقضاء والقدر وينسبون ايمانهم إلى الرضوخ لكل ذي سلطان .



وقال : ان المسلم غير المتخلق بأخلاق أوربية لا يصلح لحكم مصر . وان المستقبل الوزارى سيكون للمصريين المتربين تربية أوربية ..

وفاضل كرومر بين الاسلام والمسيحية وانتصر لديانته

الرد على كرومر

وقد رد على كرومر : مصطفى القلاينى وفريد وجدى ومصطفى المنفلوطى ورشيد رضا ومصطفى كامل وغيرهم ..

وجملة ردودهم أن كرومر انما قصد الى محاولة تشويه سمعة المسلمين والعرب والمصريين فى العالم الغربى انتقاما منهم .. وان هدفه هو التشفى من السخط الذى واجهه ، وان حملته على الاسلام انما هدم الرابطة التى تعد القوة الاولى فى مواجهة الاستعمار . وان الاسلام لم يكن فى يوم من الأيام مناقضا للمدنية العصرية أو حائلا دونها . وهو لا يناقضها ولكنه لا يقبلها كلها . ويرفض زيفها وانه اذا كانت المسيحية وقفت مانعا أمام المسيحى وبين المدنية والحضارة فان الاسلام ليس مانعا .

وان الاسلام لم يعرف فى عصر من عصوره سلطة البابا على الأمم المسيحية عندما كان يضع القوانين التى لها قدسية الأوامر المنزلة ..

وان ادعاء الغرب بأنه فصل حكومته عن الدين ليس الا اكدوبة ضخمة ، فان فرنسا ماتزال حامية للكاتوليكية ، وملكة انجلترا حامية البروتستانت .

وقد اضطر كرومر أمام الحملة العتيقة الى التراجع فأعلن انه